

محمد عبد الرحمن عوض

الإخلاص من الخطيئة

في مفهوم اليهودية والمسيحية والإسلام



الخلاص من الخطبة

حقوق الطبع محفوظة للناشر

دار البشير - القاهرة

للطباعة والنشر والتوزيع

٥٢٤٦٦٨٧

٥٢٥٢٣٩٠

١٤٥ طريق المعادى الزراعى ص. ب ١٦٩ المعادى ت

محمد عبد الرحمن عوض

الخلاص من الخطية

في مفهوم اليهودية والمسيحية والإسلام

دار البشير
القاهرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ (٤١)

(الآية ٤١ من سورة إبراهيم)

﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ
وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾ (٢٨)

(الآية ٢٨ من سورة نوح)

حَقِيقَةُ مَسْئَلَةِ

الحمد لله الذي أرسل الرسل لهداية الخلق ، وجعل العقل مناط التكليف في البشر .. فَمَنْ اكتمل عقله وجب عليه الإيمان .. وإلا فلا تكليف ولا مساءلة ..

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يُحْيِي وَيُمِيتُ وهو على كل شيء قدير .. وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله .. اختاره الله للرسالة الخاتمة فتتمت به نعمة الله على خلقه .

ثمّ أما بعد ... فلقد شغلني حديث الخطيئة والتوبة منها منذ زمن ، إذ رأيت الواحد منا - نحن البشر - يندفع إلى الخطأ ثم تعثر به بعض حالات الندم ، وقد تتطور إلى لوم للنفس ثم إلى عزيمة على الإقلاع .. ولكن الفرد لا يلبث كثيراً حتى تُنازعه نفسه إلى الخطأ .. وقد يقع فيه أو ينجو منه .. وإن وقع فيه عاودته حالات الندم .. وإن نجا منه عاودته النزعة إلى إتيانه .. حركة مستمرة لا تخمد في النفس البشرية إلا مع سكرات الموت ..

ولقد عشتُ كثيراً مع آيات التوبة في القرآن الكريم فكانت واحة فيحاء .. ترد اليأس عن النفس ، وتفتح أمامها أبواب الرجاء ، وتتعامل معها في إيقاعات مؤثرة : من تحذير من النسيان .. إلى تهريب من سوء العاقبة .. إلى ترغيب في حسن الثواب .. ثم بيان للفضل الإلهي .. العظيم . ولعلك تحس اليد الخفية تمسح على رأس المذنبين ، والبسمة الرقيقة تفتح لهم أبواب الأمل حين تقرأ قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾
(الأنعام : ٥٤)

وتجد نفس الروح الخائبة في السنة النبوية الشريفة ، ولقد دفعني ذلك إلى أن اتحسس الطريق الذي ترسمه الديانات السماوية للخلاص من الخطيئة ، فكانت هذه الدراسة الموجزة التي حرصت على أن أوضح فيها الحقائق مستقاة من مصادرها .

ولم ينعنى ذلك من التعليق على بعض الأمور التي تقتضى التعليق ، دون تجريح لأحد أو تهجم على أحد ، لأن هدفنا العرض الموضوعي للحقائق .. والباب بعد مفتوح لأي رد أو تعقيب .. ونحن نرحب بالتوجيه والنقد إذا كان هدفهما الوصول إلى الحقيقة المجردة .

هذا وقد عرّضتُ لمفهوم الخطأ من وجهة نظر اليهود مستمدة من نصوص كتبهم وأقوال علمائهم وقادتهم .. وعقبنا على بعض النقاط بما رأيناه .. ثم عرّضتُ لمفهوم الخطيئة من وجهة نظر المسيحيين مستمدة أيضاً من كتبهم وأقوال علمائهم .

وهذا موضوع شائك اقتضانا أن نُقدّم له ببعض التمهيدات .. كمناقشة موضوع تحكيم العقل في الإيمان ، وموضوع الإلهية ، وخضوع الإله للمادة ، وذلك لأن للمسيحية الحالية وجهة نظر خاصة في مثل هذه الموضوعات ، ولهذا عرضنا لها - ولغيرها - مما استوجب البحث التعرض له ثم عقبنا على بعض النقاط بما هو أهل له .. سواءً بالعقل أو النقل .

ثم عرّضتُ لمفهوم خطأ الإنسان كما يعرضه الإسلام .. وبدأتُ بالحديث عن خطيئة آدم وكيف أنها انتهت بالتوبة عليه من الله تعالى .. ثم انتقلتُ إلى الحديث عن خطايا البشر وكيفية الخلاص منها والعودة إلى الله تعالى .. واستشهدتُ في كل ذلك بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة .

أرجو الله تبارك وتعالى أن ينفع بهذا البحث ، وأن يجعله بداية خير لمن قرأه .. كما أسأله سبحانه أن يجعل هذا البحث في ميزان حسناتنا يوم القيامة .

والحمد لله ربّ العالمين ..

المؤلف



الْفَقِيْهَةُ

الخطيئة في مفهوم التوراة

التوراة كتاب اليهود المقدس ، ويرون أنه كُتب على عهد موسى - وعلى الأخص الأسفار الخمسة المنسوبة إليه - ولا يعتدون كثيراً بما يثيره المخالفون لهم من أن التوراة قد ضاعت ولم يبقَ منها إلا حكايات أقرب إلى القصص الشعبي والأساطير ، ويرى اليهود أن عزير^(١) قد أعاد كتابة التوراة كتابة موثقة ، ولهذا فهم يرفضون أى حديث حول ادعاء التحريف الذى يرفعه أعداؤهم فى وجوههم ، ولسنا الآن فى معرض بيان التحريف أو التبديل - وإن كنا نعتقد كما أخبرنا القرآن الكريم - ولكننا سنحاول هنا إظهار مفهوم الخطيئة والخلاص منها كما يراه اليهود .

١ - محور الحياة فى نظر اليهود

جعل اليهود محور حياتهم نظرية الاصطفاء أو شعب الله المختار .. وهى نظرية لها أصل فى الدين .. حيث اختار الله سبحانه وتعالى بنى إسرائيل وخصهم بمزيد من العناية الإلهية فأرسل لهم الرسل وصنع لهم الكثير من المعجزات ، وكانوا قد دخلوا مصر بقيادة يوسف عليه السلام وعاشوا فيها بين أهلها ، ومرت بهم الأيام حتى ضرب عليهم الاستعباد كما ضرب على أهل مصر جميعاً ، وشاءت العناية الإلهية أن يرسل موسى بن عمران وأخاه هارون عليهما السلام إلى فرعون وملكه ، حيث وصل الطفيان بفرعون أن ادعى الإلهية وطالب الناس بعبادته ، وكان بنو إسرائيل ضمن هؤلاء الخاضعين لفرعون . وقد أرسل الله تعالى نبيه موسى لتحقيق هدفين هما :

(١) هو الذى يدعو اليهود « عزرا » وهو الذى ورد ذكره فى القرآن : « أو كآلدى مرّ على قرية وهى خاوية على عروشها قال أئنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه ... » ، ويرى اليهود أن عزيراً هو الذى دُون التوراة تدويناً موثقاً .

* دعوة فرعون وقومه إلى الدين الحق .

* تخليص بنى إسرائيل من العبودية .

ولم تتحقق الهداية لفرعون وقومه حيث طغى عليهم سلطانهم ومكانتهم فاغثروا بها ولم يستجيبوا لنصح الناصحين .. وعزَّ عليهم أَنْ يُؤْمِنُوا برسالة جاء بها اثنان من أبناء المستعبدين وقد بين ذلك القرآن في حكايته عن فرعون وملكه ، قال تعالى : ﴿ قَالُوا أَلَمْ يَأْتِ الْبَشَرِينَ مِنْ قَبْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴾ (المؤمنون : ٤٧)

وقد شاءت العناية الإلهية أَنْ يتخلص بنو إسرائيل من نير العبودية على يد موسى عليه السلام بعد أَنْ أغرق الله فرعون وجنوده أمام أنظار بنى إسرائيل .. وبهذا استؤنف عهد الاصطفاء أو الاختيار الذى تفضل الله به على بنى إسرائيل .. ومن هذا العهد يبدأ سفر الخروج فى التوراة يحكى قصة هذا الاصطفاء .. من وجهة النظر اليهودية .

ويرى اليهود أنهم (شعب الله المختار) وهذا يعنى أنهم يتميزون عن سائر الأجناس البشرية تميزاً طبيعياً .. فى الدم والجنس والفكر والأهلية .. فى كل شيء ، لذلك فهم يطلقون على غيرهم لفظ « الجويم » وهو يعنى الأمم الأخرى غير بنى إسرائيل . وهؤلاء لهم اعتبارات وحيثيات تختلف عن اعتبارات بنى إسرائيل وحيثياتهم فاليهود ينظرون إليهم فى استعلاء . ويعتبرون ديارهم كالحظائر والساكنون فيها نوع من البهائم لا قيمة لهم .. وهذه الاعتبارات لها أسانيدھا المقدسة فى عرف اليهود .. وليس هذا مجال التفصيل فى ذكرھا .

والمهم أَنْ قضية « الشعب المختار » أو نظرية الاصطفاء صارت عند اليهود – وبمنطوق التوراة – هى محور الحياة وهدفها .. من بدايتها إلى نهايتها .. بل إِنَّ الرب فى عرفهم ليس له همٌّ إلا أَنْ يكون فى خدمة هؤلاء المختارين .. ومن منطلق هذه العقيدة يتحدد معنى الخطيئة عند اليهود .

٢ - الخطيئة عند اليهود

إِنَّ كُلَّ ما يمس الشعب المختار بسوء هو خطيئة فى عرفهم ، وأما إذا كان الأمر فى صالح الشعب المختار فهو خير محض . « إِنَّ الوصية القائلة (لا تقتل) معناها لا يجوز لك أَنْ تقتل إسرائيلياً » . وتأيداً لهذه النظرية يرددون : « إِنَّ ولداً أجنبياً شتأماً وعابداً للأصنام قتل غير اليهودى وضاجع إمرأته يتبرأ إذا اتبع الدين اليهودى بعد ارتكابه كل

هذه الموبقات ، ولكن إذا قتل يهودياً ثم انتحل الدين اليهودى فإنه يظل دائماً أثمياً وإعدامه واجب ^(١) .

واليهود يعتبرون شعوب الأرض أشراراً ، ويعتبرون الإحسان إليهم خطيئة، يقول التلمود: « كل خير يصنعه أبناء إسرائيل وجميع الإحسانات التى يوزعونها على الأغيار ، والمحبة التى يستعملونها نحوهم ، هذه كلها خطايا على اليهود ، لأنهم يعملونها تباهياً وتبجحاً ^(٢) فضلاً عن أن أهل الغرلة وثنيون وأناس بدون إيمان لا ذمة لهم ولا ذمام ، وكذلك أهل الختان من الإسلام لا يشذون عن هذه القاعدة لأنهم ليسوا أحراراً ^(٣) .

ولنسمع إلى إحدى وصايا الربانى ناثاسون المتوفى فى (لانبرج) حيث يقول : « من الفطنة الانقطاع عن المراقص ، لأن فى ذلك خطيئتين : أثواب الراقصات تثير كوامن الشهوات القبيحة ، وجمالهن الذى يسترق منا عبارات المدح والثناء ، وهذان الأمران ممنوعان بتاتاً إذا كانت الراقصات غير يهوديات ^(٤) .

ويعلن التلمود : « أن تجارة البغاء بالأجنبى أو الأجنبية ليست إثماً لأن الشريعة هى براء منهما كما قيل : زرعهم من زرع البغال .. ^(٥) .

وهكذا يتضح مفهوم الخطيئة عند اليهود كما ذكرناه فى أول هذه الفقرة ، مجرد مصلحة لليهود .. فالمصلحة عندهم تعنى أنه لا خطيئة ، وأما ما يمسهم بسوء أو يمس غيرهم بخير فهو خطيئة فى نظرهم .. وجريمة تستحق العقاب .

٣ - الإله وبنو إسرائيل

لم يقابل اليهود نعمة الاصطفاء بالشكر .. بل قابلوها بالجحود .. فبدلاً من أن يتوجهوا للإله بالعرفان إذ جعلهم شعباً مختاراً جعلوا من الإله مسخاً يرتبط بأهوائهم ، وسخروه ليعمقوا فى نفوسهم الشعور بالأنانية .

(١) همجية التعاليم الصهيونية : بولس حنا مسعد ص ٩٦ .

(٢) أى يخالفون التعاليم المقدسة عندهم .

(٣) المرجع السابق ص ٦٩ . والغرلة تعنى عدم الختان ، والختان شريعة عند اليهود وهو كذلك عند المسلمين بعكس النصارى .

(٤) السابق ص ١٠٣ .

(٥) السابق ص ٦٦ .

ولنستعرض الصورة التي يرسمها التلمود عن نشاط الله وأعماله في الليل والنهار^(١) ، فإنَّ الله تعالى يقضى الساعات الثلاث الأولى من النهار في مذاكرة الشريعة - كما يزعمون - والساعات الثلاث الثانية في تدبير شئون الحكم بين الناس .. والساعات الثلاث الثالثة في تدبير العيش للخلق ، وأما الساعات الثلاث الأخيرة من النهار فيقضيتها في اللعب مع الحوت ملك الأسماك .

وأما ساعات الليل فيقضيتها الإله - حسب زعمهم - في مذاكرة التلمود مع الملائكة ومع ملك الشياطين الذي يصعد إلى السماء كل ليلة ثم يهبط منها إلى الأرض بعد انتهاء هذه الندوة العلمية .

وهذا النظام كان قبل هدم الهيكل وتشريد بنى إسرائيل ، أما بعد هدم الهيكل والشتات فقد تغير هذا النظام .. فقد اعترف الإله بخطئه - سبحانه - في هذا الصدد وندم على ما فعله وخصص ثلاثة أرباع الليل للبكاء والندم .

وإذا كان الإله - سبحانه وتعالى - قد ندم حين أصاب بنى إسرائيل بضرر .. فَمَنْ باب أولى على كل إنسان أن يحترس حتى لا يصيب بالضرر أحداً من بنى إسرائيل ، وهكذا نجد أنَّ اليهودية قد جعلت الإله في خدمة الأنانية اليهودية .

ويزعم التلمود^(٢) أنَّ الله يردد في أثناء بكائه ونحيبه عبارات تدل على ندمه على ما فعل فيقول : « تَبَّأ لى !! أمرت بخراب بيتى وإحراق الهيكل وتشريد أولادى » . ويقول حينما يسمع الناس يُمجِّدونه : « طوبى لمن يُمجِّد الناس وهو مستحق لذلك ، وويل للأب الذى يُمجِّدُه أبناؤه مع عدم استحقاقه لذلك ؛ لأنه قضى عليهم بالتشريد والشقاء ... » .

وهكذا نلمس ما فى هذه الإشارات من مسخ وتشويه لا يمكن أن يصدر عن عقيدة سليمة ، وإنما هى أشد تعبيراً عن جماعة من النصابين أو اللصوص الذين أجادوا التخطيط وتفننوا فى خديعة أتباعهم كما سرى .

٤ - اليهود والاعتصاب

يذكر سفر التكوين عن يعقوب أنه لقي الله ذات ليلة وأخذ يصارعه حتى بزغ الفجر

(١) إسرائيل والتلمود إبراهيم خليل ص ٤٥ . (٢) المرجع السابق .

بدون أن يجد الله سبيلاً إلى التغلب على يعقوب ، وحينئذ ضرب حقَّ يعقوب فانخلع ، ولما بلغ الوهن من الله مبلغه طلب إلى يعقوب أن يخلّى سبيله لأنه قد طال أمد المصارعة وطلع الفجر ، ولكن يعقوب لم يقبل أن يطلقه إلا إذا باركه فقبل الله تعالى شرطه وباركه وسأله عن اسمه فقال : يعقوب ، فقال الله : لن تسمى بعد الآن يعقوب بل تسمى إسرائيل ذلك أنك كنتَ قوياً على الله ^(١) .

وهذه الصورة توحى بمدى تأصيل مبدأ الاغتصاب فى نفسية اليهود .. ذلك أنهم ما أخذوا لقب « إسرائيل » إلا بالعنف والإجبار .. لقد أخذوه من إلههم مقابل إطلاق سراحه .. وإنقاذاً له من قبضة يعقوب الذى صار قوياً على الله ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ولا عجب - بعد ذلك - إذا وجدنا تلك البركة المسروقة تمتد إليها يد الخديعة والسرقة مرة أخرى .. فقد شاخ إسحاق ووهنت قوته وأحس بقرب أجله فطلب من ابنه البكر « عيسو » أن يأتيه بصيد ويقدمه له طعاماً ليباركه .. وهنا تتأمر (رفقة) مع يعقوب وتدخله على أبيه بطعام يحبه على أنه عيسو ، وقد عاد بالصيد المطلوب ليحصل من أبيه على تلك البركة .

تقول التوراة : فدخل (أى يعقوب) إلى أبيه وقال : يا أبى ، فقال : ها أنذا ، فقال : من أنت يا بنى ، فقال يعقوب لأبيه : أنا عيسو بركك ، قد فعلت كما كلمتني ، قم اجلس وكل من صيدى لكى تباركنى نفسك ، فقال إسحاق لابنه : ما هذا الذى أسرع لتجد يا ابنى ؟ فقال : إن الرب إلهك قد يسر لى ، فقال إسحاق ليعقوب : تقدم لأجسك يا ابنى أنت هو ابنى عيسو أم لا ؟ (وكانت رفقة أمه التى كانت تحبه أكثر من عيسو قد كسته جلد الماعز حتى يظن إسحاق أنه عيسو الذى كان ذا شعر كثيف فى جسده وبديه ورقبته) فتقدم يعقوب إلى إسحاق أبيه فجسه وقال : الصوت صوت يعقوب ولكن اليدين يدا عيسو ولم يعرفه لأن يديه كانتا مشعرتين كيذى عيسو أخيه .. فباركه ، ولما جاء عيسو وأخذ يصرخ قال له إسحاق : « قد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك ... » ^(٢) .

(١) انظر : سفر التكوين (أصحاح ٣٢) . وراجع : اليهودية واليهود ، تأليف د. على عبد الواحد وافي ، ص ٣٧ .

(٢) نقلاً عن اليهود واليهودية والإسلام ، د. عبد الغنى عبود . والتوراة ، د. مصطفى محمود ، وهناك أمثلة أكثر من ذلك على جرائم التحايل .

وهكذا تنمو وترسخ أسس الاغتصاب والتحايل في النفس اليهودية .. دون أن يكون هناك أدنى حرج في ممارستها في السلوك اليهودي ، لأنها تركز على أساس مقدس .. ولعل هذا ما يوضح مدى استراحة اليهودي للخديعة وعدم شعوره بالذنب حينما يقتترف جريمة الاغتصاب والتحايل .

٥ - خطايا الأنبياء

رأينا كيف أباح اليهود لأنفسهم أن يتخيلوا إلههم تلميذاً على مائدة التلمود لاهياً مع الحوت ، نادماً على ما ارتكبه في حق اليهود من تشريد وتدمير للهيكل .. فهو يكي لذلك ، بل ويزعمون أن الله جعل « قوس قزح » علامة تذكركه بألا يصيب الناس بمكروه أو يفرقهم بالطوفان مرة أخرى .. وهكذا .

وإذا كان اليهود قد أباحوا لأنفسهم كل هذه الخيالات بالنسبة لله تعالى ، فإنهم لم يتورعوا عن أن يلطخوا سيرة الأنبياء تلطيخاً يتنافى مع مكانتهم كقادة للإنسانية ، وكيف يتورعون عن تلطيخهم سيرة أنبيائهم وهم لم يتورعوا عن قتلهم والتكيد بهم كلاً ما استطاعوا !!؟

ويرجع بعض الباحثين هذا الموقف إلى أن الأنبياء هم كبش الفداء في التوراة .. فكلما اشتدت وطأة الاضطهاد على اليهود لم يجدوا أمامهم غير أنبيائهم ينزلون فيهم قتلاً وتشريداً وتلطيخاً وتحريفاً وتزييفاً . لم ينج واحد من الأنبياء الأول الأكابر من التلطيخ ، فنوح يسكر حتى يفقد وعيه ، ولوط يضاجع بناته وهو سكران ، ويهوذا يزني بامرأة ابنه ، وداود يشتبهى زوجة الضابط أوربا فيزني بها ويرسل زوجها للقتل .. أما بيت داود النبي العظيم فهو أشبه ببيت سرى .. الأخ يغتصب الأخت ، والابن يضاجع زوجات أبيه في عين الشمس .. وأما سليمان فيختم حياته الجميدة - في زعمهم - بعبادة الأصنام ، وهارون يصنع العجل من الذهب ويعبد^(١) .

ولعل اليهود أرادوا بمثل هذه المواقف أن يجدوا لأنفسهم المبرر والعذر في ارتكاب المآثم والجرائم المختلفة دون أن يكون هناك ما يردعهم عنها من ضمير أو سلطان مقدس .

(١) التوراة د. مصطفى محمود ص ٥٧ وما بعدها ، ولقد رد القرآن الأمر إلى نصابه في مثل قوله تعالى : « وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا .. » . ويُن أن العجل صنعه السامري لا هارون .

اخطايا المسموح بها^(١)

لعل من أهم ما يلفت النظر - وسبق أن أشرنا إليه - أن أى جريمة لا تكون لها هذا المفهوم إلا إذا مسّت اليهودى ، أما إذا قصدت غير اليهودى فإنها - حينئذ - تكون عملاً محموداً يثاب فاعله ولا يعفى تاركه من المساءلة .. فالقتل والسرقة والزنا والتدمير .. كل هذه الأمور يجب على اليهودى أن يفعلها بلا حرج مع الأميين .. وعليه أن يحذر اقترافها مع بنى جنسه من اليهود .

وعلى هذا فلا يستطيع الإنسان أن يصل إلى مفهوم حقيقى للخطيئة لدى اليهود .. ذلك أن محور حياتهم يدور حول الاصطفاء ، فهم بعقيدة « الشعب المختار » ينظرون إلى الأمور .

وعلى هذا رأينا أن الخطيئة ذات وجهين وجه صالح وآخر سئى .. وكذلك يمكن أن ندرك نفس الوجهين للإحسان فيمكن أن يكون له وجه حسن إذا قدّمه اليهودى لليهود ، أما إذا قدّمه لغير اليهود - وهو يستطيع منعه عنهم - فهو آثم ، وأما إذا كانت الظروف لا تسمح له بمنع الإحسان عن الآخرين فهو يقدمه لهم على كره منه وضيق .

وهذا ما تنطق به كلمات التلمود .. وهو يفوق فى قدسيته التوراة . (وقد رأينا كيف زعموا أن الله يقضى بعض الساعات فى مدرسة التلمود مع الملائكة وملك الشياطين .. وهو لا يفعل ذلك مع التوراة) . وبما يقرره التلمود فى هذا الشأن :

* إذا جاء الأجنبى والإسرائيلى أمامك بدعوى ، فإذا أمكنك أن تجعل الإسرائيلى رابحاً فافعل ، واستعمل الغش والخداع فى حق الأجنبى حتى تجعل الحق لليهودى .

* مصرح لك أن تغش مأمور الجمرى غير اليهودى .. وتعلم من الحاخام صموئيل الذى اشترى من أجنبى آنية من الذهب ظنّها الأجنبى نحاساً ودفع الحاخام ثمنها أربعة دراهم فقط ثم سرق منها درهماً .

* يأمر الله بأخذ الربا من غير اليهودى ، وألا تقرضه إلا تحت هذا الشرط - أى بالربا - وبدون ذلك نكون قد ساعدناه ، على أنه من الواجب علينا ضرره .

(١) راجع : إسرائيل والتلمود دراسة تحليلية ، تأليف إبراهيم خليل أحمد ، ص ٥١ وما بعدها .

* اَقتُل الصالح من غير اليهود، ومحرمٌ على اليهودى أن يُنجى أحداً من الأجانب^(١).
 * اليهودى لا يخطئ إذا اعتدى على عَرِيضِ الأجنبية ؛ لأن كل عقد نكاح عند الأجانب فاسد ؛ لأن المرأة غير اليهودية تعتبر بهيمة والعقد لا يوجد بين البهائم .
 وهكذا نجد أن الجريمة حلال لليهود على طول الخط مع غير اليهود ، وهى حينئذ تُعدُّ قرباناً إلى الله تعالى .
 كما يُقرر التلمود أنه « مصرح لليهودى أن يُسلم نفسه للشهوات إذا لم يُمكنه مقاومتها » .

* اللواط بالزوجة جائز لليهودى ؛ لأن الزوجة بالنسبة لليهودى للاستمتاع بها كقطعة اللحم .. يمكنه أن يأكلها مسلوقة أو مشوية حسب رغبته .
 نستطيع أخى القارئ أن نتذكر الآن كيف عمل اليهود على أن يحددوا نظم التشريع حسب المصلحة الخاصة بهم بحيث نجد فى النهاية أن اليهودى مسموح له أن يفعل كل شئء حسب رغبته وهواه ، إما علانية أو عن طريق الخداع والمخاتلة .

اليهود والذبايح البشرية^(٢)

هذا نموذج لخطيئة فظيعة تحللها الشرائع اليهودية قد جاء فيها : « الذين لا يؤمنون بتعاليم الدين اليهودى وشريعة اليهود ، يجب تقديمهم قرايين إلى إلها الأَظيم » .
 « عندنا مناسبتان دمويتان تُرضيان إلها يهوه ؛ إحداهما عيد الفطائر الممزوجة بالدماء البشرية ، والأخرى مراسيم ختان أطفالنا » .
 ويُحصَل على دم بشرى من أجل « الفطيرة المقدسة » ويخلط بالدقيق الذى تُعدُّ منه فطائر عيد الفصح ...

وقد ورد فى سفر أشعيا ما يُعتبر أصلاً لهذه العادة البشعة ، أو قُل الجريمة النكراء التى لا تقرها شريعة ، وإذا كانوا يعدون هذا العمل قربى إلى إلههم فإنه لا يدل إلا على قسوة

(١) يستند اليهود إلى ما جاء فى التوراة (خروج ١ : ١١ - ١٢) ، (تكوين ٣٤ : ١٠ - ٧) .
 (٢) راجع : اليهود والقرايين البشرية ، تأليف محمد فوزى حمزة ، وهو معزز بالوثائق ، دار الأنصار القاهرة .

القلوب وغلظ الرقاب .. تقول التوراة : « .. أما أنتم أولاد المعصية نسل الكذب المتوقدون إلى لأصنام تحت كل شجرة خضراء ، القاتلون الأولاد فى الأودية تحت شقوق المعازل » .
(أشعيا ٥٧ : ٤ - ٥)

وعادة القتل ترجع إلى التعاليم التى أقرها حكماءهم استناداً إلى ما جاء فى الكتب المقدسة عندهم : « إن من حكمة الدين وتوصياته قتل الأجانب » . واليهود عندهم عيدان مقدسان لا تتم فيهما الفرحة إلا بتقديم القرابين البشرية أى بتناول الفطير المزوج بالدماء البشرية .. وأول هذين العيدين :

عيد البوريم : الذى يحتفلون فيه بذكرى لنجاح اليهودية الجميلة استير التى أقنعت ملك الفرس بالسماح لليهود بأن يقتلوا الوزير هامان ، ويذبحوا عشرات الألوف من بنى قومه بما فيهم الأطفال والشيوخ والنساء ، وذلك لأن هامان اتهم بأنه ينوى ذبح اليهود وموعد هذا العيد فى مارس من كل عام .

والعيد الثانى هو عيد الفصح اليهودى : وهذا مواعده فى أبريل وفيهما لا تحصل البركة إلا بتناول الفطائر المزوجة بالدماء البشرية .

وذبائح عيد البوريم تنتقى عادة من بين الشباب البالغين ، يؤخذ دم الضحية ويجفف على شكل ذرات تمزج بعجين الفطائر ويحفظ ما تبقى للعيد المقبل .. أما ذبائح عيد الفصح اليهودى فتكون عادة من الأولاد الذين لا تزيد أعمارهم كثيراً عن عشر سنوات ، ويتم استنزاف دم الضحية إما بطريق (البرميل الإبرى) وهو برميل يتسع لجسم الضحية تثبت على جميع جوانبه إبر حادة تغرس فى جثة الضحية بعد ذبحها ووضعها فى البرميل لتسيل منها الدماء التى يفرح اليهود بجمعها فى وعاء يعد لجمعها ... أو يذبح الضحية كما تذبح الشاة وتصفية دمها فى وعاء أو بقطع شرايين الضحية فى مواضع متعددة ليتدفق منها الدم ...

وفى مناسبات الزواج يصوم الزوجان من المساء عن كل شئ حتى يقدم لهما الحاخام بيضة مسلوقة ومغموسة فى رماد مشرب بدم إنسان ... وفى مناسبات الختان يغمس الحاخام إصبعه فى كأس مملوءة بالخمر المزوج بالدم ثم يدخله فى فم الطفل مرتين وهو يقول للطفل : إن حياتك بدمك ..

والتلمود يقول لليهود :

- « اقتل الصالح من غير الإسرائيليين » .
 « يحل بقر بطن الأُمى كما تُبقر بطن الأسماك حتى فى يوم الصوم الكبير الواقع فى أيام السبت » .
 « مَنْ يَقْتُلُ أَجْنَبِيًّا يُكَافَأُ بِالْخُلُودِ فى الفردوس والإقامة فى القصر الرابع ... » .

اخطأ بين صفوف اليهود^(١)

تتوجه التوراة بالوصايا العشر إلى أتباعها فتقول :

« أكرم أباك وأُمك لكى تطول أيامك على الأرض التى يعطيك الرب إلهك . لا تقتل . لا تزنى .. لا تسرق .. لا تشهد على قريبك شهادة زور . لا تشته بيت قريبك ، لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أُمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئاً مما لقريبك » .

(سفر الخروج ٢٠ : ١٢ - ١٧)

« أما اليوم السابع ففيه سبت للرب إلهك .. لا تصنع عملاً ما أنت وابنك وعبدك وأمتك .. إلخ »

(سفر الخروج ٢٠ : ١٠)

وهذه فيها جوانب من الخير .. والخير هنا محدود بحدود الرابطة الدموية والقرباة ، ولا تدخل إلى إطار الإنسانية ، فهى تدور فى نفس الحلقة التى حددنا آنفاً .. وهى حلقة الاصطفاء وحب الذات .

وتحدد التوراة عقوبة مَنْ ضَرَبَ أو سَبَّ أبويه وهى عقوبة لا أظنها نُفِذَتْ على مرِّ الأزمان : « مَنْ ضَرَبَ أَبَاهُ أو أُمَّهُ يَقْتُلُ قَتْلًا ... وَمَنْ شَتَمَ أَبَاهُ أو أُمَّهُ يَقْتُلُ قَتْلًا ... » .

(سفر الخروج ٢١)

ونستطيع أن نتلمس بعض القيم الرفيعة بين عبارات التوراة الموجودة فى أهدى اليهود اليوم ، مثال ذلك :

* « لا تقبل خبراً كاذباً ، ولا تضع يدك مع المنافق لتكون شاهد ظلم ، لا تتبع الكثيرين إلى فعل الشر ، ولا تحب فى دعوى مائلاً وراء الكثيرين للتحريف ، ولا تحب مع المسكين فى دعواه ، إذا صادفت ثور عدوك أو حماره شارداً ترده إليه .. » .

(سفر الخروج ٢٣)

(١) راجع : اليهود تاريخاً وعقيدة ، د. كامل سغفان ، ص ١٨٦ وما بعدها .

* « لا تشتم الأصم وقدام الأعمى لا تجعل معثرة ... » .

(التوبين : ١٩)

* « لا تأخذ رشوة لأن الرشوة تُعمى المبصرين وتعوج كلام الأبرار » .

(سفر الخروج : ١٢)

وهذا كلام أقرب إلى الصواب ، ولكنه يندثر دائماً ويتوارى بجانب الحديث عن العنصرية .

ولقد حذر موسى الناس من الاختلاط مع الخطاة حتى لا يهلكوا معهم : « فقال موسى لشيخو إسرائيل : اعتزلوا عن خيام هؤلاء القوم البغاة ولا تمسوا شيئاً مما لهم لكلا تهلكوا بجميع خطاياهم .. » ^(١) .

ولعلك - أخى القارئ - تلاحظ أن التوراة لا تسير فى خط متناسق مع الجوانب الإنسانية .. ففى بعض المراحل نجد أنها تتحدث عن بنى إسرائيل وتجعل منهم مدار التركيز ومنتهى الغايات .. وفى بعض الأحيان نراها تتحدث عن قيم رفيعة لا ندرى هل هى إنسانية عامة أم هى خاصة بينى إسرائيل دون غيرهم ؟

ومما يلفت انتباهنا ما تولى عبارات الكتاب المقدس عند اليهود من عناية بحماية الأعراض ، ومثال ذلك :

* « لا تُدنس ابتك بتعريضها للزنى لكلا تزنى الأرض وتمتلئ الأرض رذيلة » .

(لاويين : ١٩)

* « إذا كانت فتاة عذراء مخطوبة لرجل فوجدتها رجل فى المدينة واضطجع معها فأخرجوهما كليهما إلى باب تلك المدينة وارجموهما بالحجارة حتى يموتا .. الفتاة من أجل أنها لم تصرخ فى المدينة ، والرجل من أجل أنه أذل امرأة صاحبه .. ولكن إذا وجد الفتاة المخطوبة فى الحقل وأمسكها الرجل واضطجع معها يموت الرجل الذى اضطجع معها وحده ، لأنه لم يكن من يخلصها » .

(سفر التثنية : ٢٢)

(١) المصدر السابق .

مراسيم تكفير الخطايا^(١)

لا يخلو الأمر من خطأ يقع فيه الإنسان ويحس أنه أخطأ ويحتاج إلى ما يريح ضميره ، ويمنحه الطمأنينة إلى أنه نجا من العاقبة الوخيمة ، والتوراة لا تقدم كلاماً واضحاً عن الجزاء الأخرى ، وتكاد - كما رأينا - تدور حول الحياة الدنيا ، فكل ما يفعله الإله لبنى إسرائيل أنه يعطيهم الأرض ويطرد من أمامهم الشعوب ، ويجعلهم الشعب المختار .

بل وتعطيهم التوراة - كما مر بنا - الحق في ارتكاب الكثير من الخطايا ، ولقد رأينا أن القليل من التشريعات السامية التي تمثل البقية الباقية من الوحي في التوراة لا تؤثر في قليل أو كثير من النمط السلوكي لدى اليهود .. فهي لم تنجح في تخليصهم من عقدة الأنانية الناتجة عن فكرة الاصطفاء .

ولو ألقينا نظرة على مراسيم الخلاص في اليهودية لاستطعنا أن نتبين نقطة هامة وهي أنها مراسيم لا تساعد على التخلص من الذنب أو السير في طريق الشفاء منه ، بل هي مراسيم تعين المذنب على الاستمرار في جريمته ، إذ تخلصه فقط من مجرد الضيق الذي قد ينتابه لارتكاب جريمته .

وشرط نجاح خطوات التكفير عن الخطيئة في اليهودية أن يقوم بمراسم التكفير شخص من سل هارون ، وقد حدث أن جماعة ثارت على هذا الامتياز الخاص بأبناء هارون ، وكان الثائرون بقيادة رجل اسمه « قورح بن بصهار بن قهاث بن لاوى .. » وكان معه مائتان وخمسون رجلاً .. والنتيجة ضربة قاصمة « انشقت الأرض التي تحتهم وفتحت الأرض فاها وابتلعتهم وبيوتهم ... وخرجت نار من عند الرب وأكلت المائتين والخمسين رجلاً الذين قربوا البخور ... » .

وتقدم التوراة تبريراً لهذا الجزاء فتقول : « لكيلا يقترب رجل أجنبي ليس من نسل هارون ليبخر بخوراً أمام الرب » .

وكان لابد أن يخضع اليهود لذلك ويلتزموا بأن يؤدوا جزءاً من كافة أملاكهم وأموالهم : « أقمنا على أنفسنا فرائض أن نجعل على أنفسنا ثلث شاقل (عملة كانوا يتداولونها) كل سنة لخدمة بيت إلهنا .. وأن نأتي بأوائل عجينا ورفائنا وأثمار كل

(١) انظر : التوراة - العقل ، العلم ، التاريخ ، د. بدران محمد بدران ، ص ١٦٢ وما بعدها .

شجرة من الخمر والزيت إلى الكهنة ، إلى مخادع بيت إلهنا ، وبعشر أرضنا إلى اللاويين ،
واللاويون هم الذين يعشرون في جميع مدن فلاحتنا ... » (نحميا : ١٠)

خطوات التكفير

إذا أخطأ أحد من بني إسرائيل وعمل الشر في عين الرب - كما يقولون - فعليه أن يقدم ذبيحة تسمى ذبيحة خطية ، وإذا كان المخطئ كاهناً فعليه أن يقدم ثوراً ابن بقر .. فبعد أن يذبح الثور أمام خيمة الاجتماع أمام الرب يأخذ الكاهن الممسوح بالزيت المقدس من دم الثور ويدخل إلى خيمة الاجتماع وينغمس الكاهن بإصبعه في الدم وينضح من الدم سبع مرات أمام الرب لدى الحجاب المقدس ويجعل من الدم على قرون مذبح البخور الذي في خيمة الاجتماع أمام الرب وسائر دم الثور يصبه أسفل مذبح المحرقة ... إلخ .
(لاويين : ١٤ : ١٢)

واليك بعضاً من أنواع الخطايا والذنوب وطريقة تكفيرها :

* من أخطأ خطأ يقدم هذا المخطئ ذبيحة حسب مكانته - فالكاهن يقدم « ثوراً ابن بقر صحيحاً »
(اللاويين : ٤ / ٤)

* والخطأ العام يقدم له أيضاً « ثوراً ابن بقر .. » (اللاويين : ٤ / ١٥) وخطأ الرئيس يقدم له قرباناً « تيساً من المعز ذكراً صحيحاً »
(لاويين : ٤ / ٢٢)

* « وخطأ الفرد العادي العامي يقدم كنزاً من المعز أنثى صحيحة ... »
(لاويين : ٤ / ٢٨)

* « مَنْ مَسَّ شَيْئاً نَجَساً (جثة وبهيمة ...) فهو نجس ومذنب »
(لاويين : ١٠ : ١ - ٢)

* « وَمَنْ مَسَّ نَجَاسَةَ إِنْسَانٍ فهو مذنب » (لاويين : ١٥ / ٣) . والحلف ذنب .

وكفارة هذه الذنوب : أنثى من الأغنام ، نعجة أو عنزاً من المعز ، ذبيحة خطيئة ، وإن لم يمكنه ذلك فذبيحة يمامتان أو فرخا حمام .. وإن لم يمكنه ذلك فيأتى بعشر الإيفة^(١) من دقيق ، قربان خطيئة .

* وكفارة الخيانة أو الخطأ السهو في أقداس الرب كبش صحيح من الغنم .

(١) الإيفة : تعادل كيلة سلطانية وسدسها .

* وخطيئة الاختلاس والاعتصاب بأن يجحد الأمانة كفارتها رد المسلوب الذى سلبه مع تغريمه بمقداره : برأسه ويزيد عليه خمسة ثم يأتى للرب بذبيحة لإثمه كبشاً صحيحاً وذبيحة الإثم كذبيحة الخطيئة لهما .
(لاويين : ٦)

الكاهن الذى يكفر بها تكون له والكاهن الذى يعرف محرقة إنسان فجلد المحرقة التى يقربها يكون له وكل مقدمة خبزت فى التنور وكل ما عمل يكون للكاهن الذى يقربه وكل مقدمة ملتوتة بزيت أو ناشفة تكون لجميع بنى هارون كل إنسان كأخيه .
(لاويين : الأصحاح الأول - إلى الأصحاح السابع)

* وإذا حبلت المرأة وولدت ذكراً تكون نجسة سبعة أيام كما فى أيام طمث علتها تكون نجسة .. وتظل ثلاثة وثلاثين يوماً .

وإن ولدت أنثى تكون نجسة أسبوعين ؛ وتظل ستة وستين يوماً ومتى كملت أيام تطهيرها .. تأتى بخروف حولى محرقة ، وفرخ حمامة أو يمامة ذبيحة خطية ، وإن لم تقدر على شاة تأخذ يمامتين أو فرخى حمام الواحد محرقة والآخر ذبيحة خطية فيكفر عنها الكاهن فتطهر

* وإذا أصيب الإنسان بالبرص يعرض على الكاهن ، فإذا كان مكان البرص من الجلد « نائى أو قوباء أو لمعة .. » ورأى الكاهن - من بنى هارون - الضربة أعمق من جلد جسد ، أو أبيض الشعر حكم الكاهن بنجاسته ، أما إذا لم تمتد الضربة فى الجلد يحكم الكاهن بطهارته .

وقارئ الأصحاح الثالث عشر من سفر اللاويين يجد نفسه أمام تصنيف للأمراض الجلدية حيث يعرض المصاب بها ؛ ولو بآثر من آثار الكى فينظر الكاهن فى أمره ويحجزه إن اقتضى الأمر سبعة أيام ثم سبعة أيام أخرى فإن رأى المكان قد أبيض والمنظر أعمق من الجلد .. يحكم الكاهن بنجاسته .

ولا يتوقف الأمر عند جلد الكائن الحى - والإنسان خاصة - بل يمتد إلى الثوب (صوف أو كتان أو جلد وكل مصنوع من جلد) وقد يرى الكاهن أن يحرق مكان برص الثياب .

* وفى (اللاويين : ١٤) : شريعة تطهير الأبرص ، إذا رأى الكاهن أنه قد برئ فيقدم الذبائح والقربان . يأخذ خروفين صحيحين ونعجة واحدة حولية صحيحة وثلاثة أعشار دقيق مقدمة ملتوتاً .

وإن كان فقيراً : يأخذ خروفاً واحداً .. وعشراً واحداً من دقيق .

* وفى (اللاويين : ١٥) : حديث عن الرجل الذى يكون له سبل من لحمه فسيله نجس .. ومن مسّ فراشه يغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجساً إلى المساء .

* إذا زنى رجل مع امرأة قريبه فإنه يقتل الزانى والزانية .

يقتل الزانى والزانية إذا زنى بامرأة قريبه أو امرأة أبيه ، وكذا الشواذ (رجل مع رجل) . يحرق من تزوج بامرأة وأمها ، وكذلك هما شحرقان ويقتل من أتى بهيمة .

(اللاويين : ٢٤)

كل من سبّ إلهه يحمل خطيئته ، ومن جدف على اسم الرب فإنه يقتل برجمه كل الجماعة رجماً .

وعن شريعة القصاص جاء فى (اللاويين : ٢٤) :

وإذا أمت أحد إنساناً فإنه يقتل ومن أمت بهيمة يعوض عنها - نفساً بنفس .

وإذا أحدث إنسان فى قريب عيباً فكما فعل ، كذلك يفعل به كسر بكسر وعين بعين وسن بسن . كما أحدث عيباً فى الإنسان كذلك يحدث فيه .

الغريب يكون كالوطني .

ولكى يرتقى المنبوذ أو المعزول إلى درجة الامتزاج بينى جلدته وقومه ينبغى له من الطهارة ومن طقوس الذبائح بأنواعها ^(١) . ذبيحة الشكر وذبيحة الفداء وذبيحة الإثم وذبيحة الكفارة طقوساً للتطهير فيوصى موسى بنى إسرائيل بقوله :

« فيأخذون للنجس من غبار حريق ذبيحة الخطية ، ويجعل عليه ماء حيا فى إناء ، ويأخذ رجل طاهر زوفاً ويغمسها فى الماء وينضحه على الخيمة وعلى جميع الأمتعة وعلى الأنفس الذين كانوا هنا ، وعلى الذى مس العظم أو القتل أو الميت أو القبر ينضج الطاهر على النجس فى اليوم الثالث واليوم السابع ويطهره فى اليوم السابع فيغسل ثيابه ويرحض بماء فيكون طاهراً فى الماء ، وأما الإنسان الذى يتنجس ولا يتطهر فتباد تلك النفس من بين الجماعة لأنه نجس مقدس الرب ، ماء النجاسة لم يرش عليه إنه نجس

(١) إسرائيل والتلمود - دراسة تحليلية ، إبراهيم خليل أحمد ، ص ٩٩ .

فتكون لكم فريضة دهرية ، والذي رش ماء النجاسة يغسل وكل ما مسه النجس يتنجس والنفس التي تمس تكون نجسة إلى المساء »
(عدد ٥ : ١ - ٤)

هذه الطقوس لم تقرب بني إسرائيل إلى الله بل باعدت بينهم وبين الله ، فيقول أشعيا :
« اسمعى أيتها السموات وأصغى أيتها الأرض لأن الرب يتكلم ، ربييت بنين ونشأتهم أما هم فعصوا على ، الثور يعرف قانيه والحمار معلف صاحبه ، أما إسرائيل فلا يعرف ، شعبي لا يفهم ، ويل للأمم الخاطئة الشعب الثقيل الإثم نسل فاعلى الشر أولاد مفسدين تركوا الرب استهانوا بقدوس إسرائيل ارتدوا إلى وراء »
(أشعيا : ٢ : ٤)

ثم يندد بأعمالهم ويكشفها لهم وللأجيال بقوله « لا تعودوا . تأتون بتقديم باطلة النحور هو مكرهة لى رأس الشهر والسبت ونداء المحفل لست أطيق الإثم والاعتكاف رءوس شهورك وأعيادكم بغضتها نفسى صارت على ثقلا ملك حملها فحين تبسطون أيديكم أستر عيني عنكم وإن كثرت الصلاة لا أسمع أيديكم ملانة دماً .. اغتسلوا تنقوا ، اعزلوا شر أفعالكم من أمام عيني ، كفوا عن فعل الشر تعلموا فعل الخير ، اطلبوا الحق ، انصفوا المظلوم ، اقصوا لليتيم ، حاموا عن الأرملة إن شئتم وسمعتكم تأكلون خير الأرض وإن أبيتم وتمردتم تؤكلون بالسيف لأن فم الرب تكلم »
(أشعيا : ١ : ١٣ - ٢٠)

ويوضح العهد الجديد أن هذه الذبائح لا تستطيع ألبة أن تنزع الخطية ^(١) ، إذ يقول كاتب الرسالة إلى العبرانيين : « وكل كاهن يقوم كل يوم يخدم ويقدم مراراً كثيرة تلك الذبائح عينها لا تستطيع ألبة أن تنزع الخطية »
(عبرانيين : ١٠ : ١١ - ١٢)

يوم التكفير والغفران ^(٢)

وَتُطَلَّبُ المغفرة فيه عن الذنوب التي فعلها اليهود فى صلاة جماعية يؤديها الكهنة ، ويمكن القيام بالصلاة فى أى وقت من السنة ، لكن يوم التكفير يتميز بتمسك اليهود فيه إذ يمضون اليوم كله فى الصلاة والصيام وسبقه تسعة أيام من التوبة عما فعلوا طول العام من آثام ، وهذا اليوم يكون فى الشهر السابع من السنة اليهودية .
وهكذا نرى أن الخلاص من الذنب يكون بتقديم الحرقا والهدايا للكهنة ثم بالصلاة

(١) السابق ص ٩٧ .

(٢) انظر : اليهود تاريخاً وعقيدة ، ص ٢٢٣ .

الموسمية التي تُقام في أوقات معينة من السنة .. وكل هذه أمور لا تضمن للمذنب خلاصاً حقيقياً من الذنب ، بل إنها كما أشرنا تريح أعصابه إذا توترت لارتكابه ذنباً .. وتعطيه صك الأمان إلى أنه في أى وقت يستطيع أن يتحول إلى إنسان طاهر الدليل عفيف النفس مهما فعل من آثام ، وذلك بفضل ما تعطيه له ديانته من آمال عراض في الصفاء ، عن طريق الاصطفاء .

خاتمة

نلاحظ بعد ما عرضناه أن اليهودية في تقديمها للخطيئة والخلاص منها قاصرة في عدة جوانب منها :

* أنها لم تراع الجوانب الإنسانية المختلفة ولم تتعامل مع الإنسان بمنطق البشرية بل بمنطق العنصرية .

* لا توجد في عرف الديانة اليهودية خطيئة بمعنى هذه الكلمة .. وإنما توجد اعتبارات .. إذا توفرت تحول الفعل إلى خطأ .. وإلا فهو صواب .

* إن طريق الخلاص بعيد بعداً تاماً عن خط العلاج الصحيح ، بل إننا رأيناه مناسباً لتعميق الخطيئة والاستراحة إليها فهو لا يضمن رد الحقوق إلى أصحابها وترك الخطأ .. إلى الصواب .

* إن الخطيئة - في عرف اليهود - أمر لم يتنزه عنه أحد حتى الأنبياء بل والذات الإلهية ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وقت الخلاص اليهودي

لم تتضمن أسفار التوراة أى حديث صريح عن يوم القيامة والبعث والحساب سوى إشارات عن محاسبة المقصرين وإدانة الناس ، جاءت هذه الإشارات في ثنايا بعض الترانيم أو مناجاة بعض القديسين فهي إشارات عابرة ولم تجرد التوراة آيات قاطعات عن هذا الأمر الخطير .. وخلصت تبعاً لذلك من الحديث عن الجنة والنار ، ذلك أن اليهود عاشوا فترة السبي بعيدين عن أى تراث لهم سوى ما وعته ذاكرتهم من ذكريات وأقاصيص تداولها

القوم فيما بينهم وضخمت ما تركوه من نراث شأن أى مغترب عن بيته ووطنه ، ييكى ما كان ، ويحن إلى الأيام الخالية .

وعاشت فى أذهان اليهود - أيام السبى - ذكريات الهيكل وما كانوا ينعمون به - أو ينعم به أجدادهم - فى ظل حكم سليمان عليه السلام .

وبعد هذه الفترة كتبت التوراة - أو أعيد كتابتها - فإذا بها تخلو من الحديث عن عالم الآخرة ، وإذا بها تصور الرب ملكاً خاصاً لليهود ، وتضعه موضع الخادم لهم ، الحريص على منفعتهم ، النادم على الإساءة لهم .

ويكفى أن تعرف أن ما يُسميه الناس (قوس قزح) وهو ما يظهر عقب المطر فى الأفق كخطين (أحمر وأخضر) ، هذه الظاهرة الطبيعية ليست بسبب انعكاسات ألوان الطيف ، بل هى علامة وضعها الرب ليتذكر بها إذا حمى غضبه حتى لا يؤذى بنى إسرائيل .

ويعقوب - عليه السلام - فى نصوص التوراة المكتوبة عقب فترة السبى ينال البركة بعد مصارعة عنيفة بينه وبين الله .. إذ لم يتركه يعقوب طوال الليل وظل متعلقاً به حتى قاربت خيوط الفجر أن تبزغ .. وأصرَّ يعقوب على أن ينال البركة .. وفعلًا نال البركة وتغير اسمه من يعقوب إلى إسرائيل .. لأنه صارع مع الله حتى الصباح .

* ولم تجد التوراة حرجاً فى أن تذكر طريقة اختلاس يعقوب البركة من أخيه عيسو^(١) .

تلك هى الشخصية التى تُربِّها التوراة فكيف يسوغ معها الحديث عن اليوم الآخر والثواب والعقاب فيه . وفيهم من يقترب للإثم والفاحشة ولا يزال مع من يرتكبها .. وسواءً مع أخته أو أمه أو ابنته .. وفيهم من يقدس الزواني وفيهم من يحترف السرقة والكذب والخداع ؟

إن هذه التوراة هى الرد اللاشعورى على الاضطهاد والسبى وهتك الأعراض وقتل الرجال ، ومن هذا المنطلق يأتي الخلاص اليهودى .. إنه خلاص فى الدنيا .. إنه مملكة تُقام على الأرض . ألم يهدم هيكلهم ؟ ألم تقوِّض مملكتهم التى لم تدم سوى بضعة سنين ؟ فليكن الخلاص ماثلاً فى مملكة على الأرض ، وإذا كانوا قد ذاقوا مرارة السبى

(١) سبق الحديث عن هذا ، فليراجع فى موضعه .

وقسوة القتل فلتأت النبوءات بالخلاص .. الخلاص من الكل ، حيث يدوسون كُلَّ شعوب الأرض . واقرأ هذا النص في الأصحاح ١١ من سفر أشعيا :

« ويكون في ذلك اليوم أن يجمع الرب جميع المشتتين والمنفيين من أبناء إسرائيل ويهوذا من أربعة أطراف الأرض .. لينقض الجميع على أكتاف الفلسطينيين غرباً وينهبون بنى المشرق معاً .. يكون على أدوم ومؤاب امتداد أيديهم وبنو عمون في طاعتهم ، ويبد الرب لسان بحر مصر ويهز يده على النهر بقوة ريحه ويضربه إلى سبع سواقي يعبر فيها بنو إسرائيل بالأحذية ، وتكون سكة لبقية شعبه كما كان لإسرائيل يوم الخروج من أرض مصر » .

وهكذا يكون الخلاص بالثأر من التاريخ .. الثأر من المصريين لما فعله أجدادهم ومن غير المصريين حيث يصير الجميع خدماً وعبيداً .

وإذا كان المصريون قد سبق أن استعبدوا بنى إسرائيل وساموهم سوء العذاب ، فإنه لا بد أن يأتى اليوم الذى تنهار فيه الحياة فى مصر حتى لا ترفع عصاها فى وجه اليهود ، وقد تكفل الرب بهذه المهمة .

واقرأ هذه الفقرة حيث يقول الرب : « أهيج مصريين على مصريين ، فيحارب كل واحد أخاه ، وكل واحد صاحبه ، مدينة مدينة ، ومملكة مملكة ، وتراق روح مصر داخلها وتضيع مشورتها ، فيسأل كل واحد العرافين والتوابع والجن ، وأغلق على المصريين فى يد حاكم قاسٍ فيتسلط عليهم .

وتجف الحياة من البحر ويجف النهر وتنتن الأنهار وتضعف السواقي ويتلف الزرع وتجف الرياض والحقول على ضفاف النيل ، والصيادون لا يجدون صيداً .. وكل من يلقي بشص إلى النيل ينوح ، ويكتشب كل عامل بالأجرة .

لقد ألقى الرب عليها روحاً شريرة أو وقعت مصر فى ضلال وأضلّت أبناءها فإذا بهم يترنحون كالسكران فى قيئه فلا يكون لمصر عمل بعمله رأس أو ذنب ، وتكون أرض إسرائيل ويهوذا رعباً لمصر ، كل من ذكرها يرتعب ... » .

وهكذا - أخى القارئ - ترى كيف أن مصر فى التفكير اليهودى لها وضع خاص .. يجب أن تنهار ، ويجب أن تسود فيها الفتنة .. ويجب أن يعملوا على تخريبها حتى ينوح كل من فيها .. ولا سبيل لخلاصها إلا أن تكون تابعاً لبنى إسرائيل ، واسمع إلى هذا

الكلام : « ويصرخ المصريون .. وقيمون في وسطهم عموداً ومذبحاً للرب فيرسل الرب لهم محامياً ومخلصاً يخلصهم ويرجعون للرب فيستجيب لهم ويشفيهم » .

وهكذا لا يكون لمصر خلاص إلا بتبعتها لبني إسرائيل .

واقراً هذا النص لتري كيف يكون خلاص بني إسرائيل .. حيث سيعودون رأس الزاوية وأساس البركة ..

« في ذلك اليوم تكون سكة مصر إلى آشور ، فيجيء الآشوريون إلى مصر ويذهب المصريون إلى آشور وتكون إسرائيل هي الثالثة ، وهي البركة في وسط الكل » .

واقراً في سفر أشعيا : ٣٤ : « للرب تكون ذبيحة في البصرة وذبيحة عظيمة في أرض أدوم ، وترتوى الأرض بالدم وتتحول أنهارها زفتاً وترباها كبريتاً ، وتصير أرضها زفتاً مشتعلاً ليلاً ونهاراً ، لا تنطفئ إلى الأبد يصعد دخانها » .

« ويرثها القنفذ والقوق والكركي والغراب ويمتد عليها خيط الخراب ومطمار الخلاء خراب إلى يوم الدينونة » .

وهكذا تُخرب العراق كما تُخرب مصر ... أما بنو إسرائيل : « استيقظي استيقظي البسي عزك يا صهيون البسي ثياب جمالك يا أورشليم لأنه لا يعود يدخلك في ما بعد أغلف ولا نجس » (أنبيا : ٥٢)

والأغلف والنجس - في زعم اليهود - هما النصراني والمسلم .

ويوجز (أشعيا : ٤٩) قضية الخلاص في مفهوم اليهود « هكذا قال السيد الرب هانئ أرفع إلى الأمم يدي وإلى الشعوب أقيم رايتي فيأتون بأولادك في الأحضان وبناتك على الأكثاف يحملن ويكون الملوك حاضنك وسيداتهم مرضعاتك ... بالوجه إلى الأرض يسجدون لك . ويلحسون غبار رجليك . فتعلمين أني أنا الرب الذي لا يخيب من انتظره » .

ولعلك الآن - أخى القارئ - قد عرفت سر إسقاط التفكير في اليوم الآخر من ذاكرة كتاب التوراة .. إنهم رأوا خلاصهم على هذه الأرض .. حيث يعودون شعباً مدلاً .. فيه البركة ... يسجد له الجميع .. فلماذا القيامة ؟ .. ولم الحساب والثواب والعقاب ؟

فإذا ما رجعت إلى القرآن الكريم - كتاب الله الخالد ومعجزته الباقية - وجدت الآيات تعبر عن كراهية اليهود للموت إذ تحذاهم المولى سبحانه وتعالى فقال :

﴿ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَنْ يَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾
(البقرة : ٩٤)

ولم تهزهم الذنوب التي اقترفوها في حق الله تعالى بجحود نعمه وعبادة غيره ، إذ زعموا أن هارون ^(١) أقام لهم عجلاً وعبدوه في غيبة موسى ثم في حق أنبيائه حيث كذبوا وقتلوا منهم من قتلوا .. وبعد ذلك زعموا أنهم لهم لجنة فقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾ (البقرة : ١١١) ، وزعموا أنه لو سلموا - جدلاً - بأنهم سيدخلون النار فإنهم سيدخلونها أياما معدودات ، قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً ﴾
(البقرة : ٨٠)

وهكذا ترى الفكرة عن الآخرة مشوشة عندهم وأنهم لا يشغلهم إلا أنهم الشعب المختار ، وما علموا أن ذلك الاختيار والتمييز إنما كان على عالمي زمانهم . أو كان تمييزاً في وجه من الوجوه ، وهذا لا يستلزم المطلق ، نسأل الله تعالى أن يهدينا إلى سواء السبيل .



(١) يصحح القرآن المفهوم : أن الذي صنع العجل هو السامري ، وأن هارون عليه السلام حاول ردهم عن ذلك .

القسم الثاني

الخطيئة والخلاص في عُرف المسيحية

تمهيد

حينما نبحث قضية الخطيئة والخلاص في الديانة المسيحية نجدها في قمة التعقيد والتشابك ، فللمسيحية فلسفة خاصة ، وتصور معين لهذه القضية يختلف عن جميع التصورات التي نزلت بها الشرائع السماوية ... من لدن آدم عليه السلام ... فقد أصبحت المسيحية نظاماً فريداً يعزُّ على الأفهام تصوره ، ويصطدم فيه العقل بكثير من العقبات .

وإننا في هذه الدراسة عن الخطيئة - في النصرانية - لسنا أمام خطأ يرتكبه الأفراد ويحاولون إصلاحه بمساعدة إلهية .. بل أمام لغز بشري اسمه الخطيئة الأبدية ، تلك الخطيئة التي التصقت بالناس جميعاً عندما ارتكب آدم المعصية وأكل من الشجرة . وهذه المعصية لا يكفرها إلا دم إلهي حتى لا يموت آدم وأولاده موتاً أبدياً .

وهذه المعصية لم تلتصق بآدم عليه السلام وحده ، بل توارثها أبنائُه جيلاً بعد جيل ، ولم يكن أمام الخالق سبحانه وتعالى - إزاء هذا التعقيد - إلا أن يحل المسألة حلاً جذرياً لا يتجدد الخطيئة معه إلا أن تستحي وتترك البشرية . فماذا عليه أن يفعل ؟

زعموا أن الله - تعالى - أرسل ابنه إلى الأرض ووكل إليه المهمة .. فما عليه إلا أن يستسلم لليهود كي يصلبوه ويقتلوه شر قتلة ، وبهذا وحده تتطهر البشرية وتنجو من الخطيئة التي ارتكبها آدم وجرتهم إلى الجحيم .

فالمسألة كما ترى ليست الخطيئة والخلاص ، وإنما هي - مع ذلك - مسألة التبنّي والصليب ، ولا يملك الدارس لقضية الخطيئة والخلاص إلا أن يتعرض بالبحث والدراسة في قضية الفداء على النمط المسيحي .

ذلك لأن هذه القضية قد أدت بهم إلى القول بالثالوث (الأقانيم الثلاثة عندهم هي

الأب . الابن ، الروح القدس ، ويزعمون أن الثلاثة إله واحد ...) كما دفعتهم إلى الإيمان بالصليب .. بل وجعلتهم يؤمنون باستمرارية الوحي إلى يومنا هذا إذ لم ينقطع الوحي عندهم ، لأن الكهنة واللاهوتيين إذا امتلأوا بالروح القدس كان نطقهم وحيًا من الله ، وكان كلامهم كلاماً من الله جرى على لسانهم ^(١) .

ولهذا رأيت أن أتناول في هذا التمهيد - بإيجاز - قضية الإيمان والعقل. لأوضح موقف المسيحية من الإيمان العقلي ثم أعرض لقضية الوحداية عرضاً سريعاً أستشهد فيه بما ورد في الأناجيل عن الله الواحد الذى لا شريك له .. ثم أوضح بعض الغموض فى موقف المسيحية من الوحي ، وذلك تمكيناً للحق .. وعوناً لأهله * ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حى عن بينة * .. وتقديماً للعذر بين يدى الله تعالى .. وقياماً بحق التبليغ والنصيحة .

وقد يتساءل البعض عن السر في فصل الحديث عن الخطيئة عند اليهود عن الحديث عنها لدى النصارى .. وكان يمكن تناولهما فى إطار واحد تحت عنوان الخطيئة فى الكتاب المقدس مثلاً إذ إن المسيحيين يعتبرون التوراة جزءاً متمماً للإنجيل ..

والجواب أن اليهود يؤمنون بالتوراة دون الإنجيل وعندهم التلمود متمم لشريعتهم واليهود ملتزمون بتقديم القرابين حسب الثابت لديهم .. أما المسيحيون فلا يعترفون بالتلمود .. ثم إنهم وإن كانوا يعترفون بالتوراة إلا أنهم لا يلتزمون بكثير مما جاء فيها .

* فالختان غير ضرورى عند النصارى .. وهو فى التوراة .

* ولا يلتزمون بالسبت .

* كما أنهم لا يقدمون الذبائح والقرابين حسب ما هو موجود فى التوراة أو العهد القديم كما يحلو لهم أن يسموه .

ولهذا وجدنا اختلافاً جذرياً بين الفريقين يصل إلى حد التنافر - فآثرت أن يكون لكل فريق جانب خاص به فى هذا البحث .

(١) أصدر الفاتيكان وثيقة تعلن عن تبرئة اليهود من دم المسيح . وهم الذين صلبوه فى زعمهم وهذا يدلنا على أن الرهبان من حقهم أن يغيروا من فوأت العقيدة عندهم .

الإيمان والعقل

خلق الله الإنسان وميّزه عن سائر الكائنات التي ارتبطت بعالمه الذى يعيش فيه ، وسخر له ما فى الكون .. ولعلنا نتفق حول ما يتميز به الإنسان ألا وهو العقل ، ذلك أن الإنسان لا يتميز عن غيره بالوجدان أو الغريزة أو القوة الجسمية ، فكلها أمور يشاركه فيها الحيوان .. أما العقل فهو خاصية تميز بها الإنسان ليكون أهلاً للتكليف والمساءلة .

هذه مقدمة لابد منها قبل أن نوضح علاقة الإيمان بالعقل ... وليس من المقبول أن تكون الشرائع المرسلة من الله تعالى للبشر مخالفة لمقتضى فطرة العقل البشرى ، لأن دراستنا لتاريخ الرسل والرسالات تدلنا على مدى الاتساق البالغ بين ما جاء به الرسل ومقتضيات العقل الإنسانى .

أبو الأنبياء .. والعقل

وسلوك أبى الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام مثال واضح يدل على ضرورة المنهج العقلى فى الإيمان والرسالة التى حملها إلى قومه قائمة أصولها على الإقناع ونستطيع أن نتبين ذلك فى موقفين :

أولهما : حينما حاول أن يرتفع بأنظار قومه ويسمو بأفكارهم حتى لا ترتبط بأصنام يصنعونها بأيديهم ثم يخرون لها سجداً .. ارتفع بهم إلى ما هو أكبر من الأحجار وأشد خلقاً ، فلما رأى كوكباً قال : « هَذَا رَبِّى » .. فلما أفل قال : « لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ » .

إذن الرب لا يغيب .. واستمر إبراهيم عليه السلام فى توجيه انتباه قومه إلى الكون وما فيه ، فلما رأى القمر بازغاً قال : « هَذَا رَبِّى » . وبعلل لذلك قائلاً : « هَذَا أَكْبَرُ » كما وضّح القرآن .. وغاب القمر .. ولم يرض إبراهيم عن إله يغيب عن خلقه فقال : « لَعَنَ لَمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ » (الأنعام : ٧٧)

ولم يتعجل إبراهيم النتيجة ، فالإقناع يحتاج إلى صبر ولهذا انتظر إبراهيم إلى الصباح حتى بزغت الشمس فقال لقومه « هَذَا رَبِّى » ، فلما غابت الشمس لم يجد يداً من إعلان النتيجة الحتمية ، فلا الأصنام تصلح آلهة تعبد ، ولا الكواكب والنجوم .

إِنَّ إِلَهَهُ الْوَاحِدَ .. هُوَ الَّذِي خَلَقَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْإِنْسَانَ .. وَهَذَا أَعْلَنَ إِبْرَاهِيمَ الْحَقِيقَةَ :

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام : ٧٩) وهكذا أراد إبراهيم الخليل بالدليل العقلي أن يقنع قومه بأن يرتفعوا عن عبادة الأوثان والمخلوقات إلى عبادة الله الواحد الذي لا شريك له ..

الموقف الثاني : عندما أراد الخليل أن يضع قومه أمام الأمر الواقع .. حيث أراد أن يقنعهم بأن الأوثان لا تستطيع أن تدفع عن نفسها شيئاً .. فعزم على أن يحطمها في يوم عيدهم فلمسا رجعوا فوجئوا بما حدث فتساءلوا : ﴿مَنْ فَعَلَ هَذَا بِالْهَيْتَا﴾ (الأنبياء : ٥٩) وجاء الجواب : ﴿سَمِعْنَا فَتَى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ (الأنبياء : ٦٠) ، وجاء إبراهيم على ردوس الأشهاد وجرت له محاكمة : ﴿أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ (الأنبياء : ٦٢) ، ويضعهم إبراهيم أمام عقولهم ليحكموا إليها ، فقال لهم : ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ (الأنبياء : ٦٣) . وفعلاً حدثت صحوة فكرية لدى القوم يحكيها القرآن في قوله تعالى : ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (الأنبياء : ٦٤)

إنها صحوة رجع فيها القوم إلى أنفسهم وتحاكموا إلى عقولهم .. ولكنها لم تدم طويلاً بل عادوا إلى ضلالهم ويحكي القرآن هذه الردة الفكرية في قوله تعالى : ﴿ثُمَّ لَكُسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ (الأنبياء : ٦٥) ، واستمر الحوار ولكنه لم يكن مجدياً عقب النكسة الفكرية التي أصيبوا بها ووصلوا إلى نقطة اللاعودة ، إذ حكموا عليه بالإعدام حرقاً ، ويحكي القرآن الكريم هذا الموقف في قوله سبحانه : ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (الأنبياء : ٦٨) ، وهكذا لم يحترموا عقولهم فكانوا من الخاسرين ، يقول تعالى : ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ (الأنبياء : ٧٠)

مجال العقل والتفكير

ليس هناك سبب يلزم الإنسان بأن يحجر على عقله ويحدد مجال نشاطه ، فلم يخلق الله حاسة في الإنسان أو يهبه ملكة من ملكات نفسه إلا ويحجّه على استخدامها الاستخدام الأمثل .

والعقل - كما ألقنا - هو أفضل ما تميز به الإنسان ، وبالتالي فإن استخدام العقل

ضرورة ربما تفوق عند الإنسان ضرورة الطعام والشراب .. ويجدر بنا أن نُحدد مجال التفكير وعمل العقول حتى لا تضل بنا السبل .

ومجال العقل - بداهة - لا يتعدى حدود العالم الذى نعيش فيه ، فالعقل له إمكانياته كأي قدرة بشرية .. ولا أدل على ذلك من هذا التطور الذى نشهده كل يوم فى العلم التجريبي ، ولو أن العقل البشرى غير محدود لكان علمه غير محدود مثله ، ولوصل إلى الأشياء كلها دفعة واحدة ، ولكن ما نراه يمثل طاقة محدودة للعقل البشرى .

إن ما نعيشه من حضارة وتقدم هو نتاج عمل آلاف من البشر .. وصل كل واحد منهم إلى جزئية بنى عليها غيره ، فاللاحق يركز على ما وصل إليه السابق ، يضيف إليه ويعيدل فى نتائجه .

وهكذا لا يزعم أحد أنه يعلم كل شيء ، ولا يستطيع أن يتصدر للفتوى فى كل مجال ، وهكذا يبدو لنا أن العقل البشرى طاقة محدودة كباقي طاقات الإنسان .. وإن كان العقل يفوقها كثيراً ، ولكن إلى حدود .

وإذا كان العقل طاقة محدودة فمجاله العالم المادى المحدود الذى نعيش فيه .. ووسائله المعروفة ، فهو يستعين بالمبصرات والمسموعات وغير ذلك من وسائل الإثبات التى نعلمها.. ثم يبنى عليها ويستنبط منها ما يشاء .

العقل وعالم الغيب

لما كان العقل البشرى طاقة محدودة تتعامل مع عالم المادة .. أو عالم الشهادة كما يُسميه القرآن الكريم أحياناً كان لا بد للرسالات أن تحترم هذا العقل ولا تلغيه ولا تستهين به ، وهذا قول لا نلقيه على عواهنه وإنما يشهد به واقع الرسالات الإلهية جميعاً ، فما وجدنا رسالة - فى أصولها السليمة - تقود الإنسان معصوب العينين معطل العقل إلى مصير يجهله أو إلى غاية لا يستطيع أن يتفهم أسسها ، وهذا لا يختلف فيه نوح عن هود عن موسى عليهم السلام إلى خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم .. وقد رأينا مثلاً على ذلك فى استعراضنا للمحاجة بين أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام وقومه .. وفى القرآن تفصيل أكثر لا مجال لعرضه هنا .

ومن احترام الرسالات لعقل الإنسان أنها حددت له كيفية التعامل مع الغيبات وأمدته

بالوسائل والأسباب التي تكفل له الوصول - باطمئنان - إلى الحقائق .. فأتخذت من عالم الشهادة دليلاً على عالم الغيب .. وضربت له الأمثلة من العالم الذى يعيش فيه ، وقد ضرب الرسول ﷺ مثلاً على ذلك فى أول مبعثه فكان مما قال « ... والله لَتَمُوتُنَّ كما تنامون ، ولتبعثنَّ كما تَسْتَيْقِظُونَ ... » فاستشهد بالمشاهد على الغيب .. كما دُلَّ القرآن على نفس القضية بالنبات ، فضربَ مثل الحياة الدنيا :

« كَمَا أُنزِلْنَا مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْطَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَهَّتْ وَطَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَنَا هَؤُلَاءِ ... » (يونس : ٢٤)

فنهاية الدنيا مثل نهاية النبات .. والإنسان يعيش نهاية النبات فى دورات متعددة وبه مثل نهاية الدنيا التى لم يعيشها .

وهكذا نعيم الجنة وعذاب النار ضُرِبَتْ لهما الأمثلة الكثيرة وفاءً لحق العقل فى أن يقوم بدوره ولا يعطل ، فقال تعالى عن نعيم الجنة وأهلها :

« عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ * يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ . يَبَاشُ اللَّذَّةِ لِلشَّارِبِينَ * لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ » (الصافات : ٤٤ - ٤٧) .. وهكذا ... وهكذا .

أما عن عذاب جهنم - والعياذ بالله - فيكفى أن نذكرَ القارئ بقول الله تعالى : « إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ * طَعَامُ الْأَلِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ الْحَمِيمِ » (الدخان : ٤٣ - ٤٦)

وعلى العقل أن يدرس ويستنتج ، ليصل إلى حقيقة عالم الغيب .. أو على الأقل إلى تصور عام عنه ، وذلك عن طريق ما يعلمه من حقائق عالم الشهادة .

ومن احترام العقل لنفسه ألا يخوض فى حقائق عالم الغيب إلا بمقدار ما أُخبرَ عنه .. فإنَّ الغيب ليس من مجالات العقل . فالعقل - كما أسلفنا - لا يتعدى حدود العالم الذى نعيش فيه .

من حقائق عالم الغيب

* أولى الحقائق فى عالم الغيب : الله الواحد الأحد الفرد الصمد .. وهذه حقيقة الحقائق ، بل ولا حقيقة سواها .. لا إله إلا الله وحده لا شريك له .. بيده الأمر كله .

* ومن حقائق عالم الغيب : الملائكة .. والقيامة .. والبعث .. والحساب .. والجنة والنار .

* وكما قلنا : لا مجال للعقل ، فهو عاجز عن الوصول إلى حقائق عالم الغيب ؛ لأنه لا يملك منها إلا ما يسوقه إليه الوحي الإلهي .

ولقد كان الوحي - على اختلاف الرسل وكثرة الرسائل - واضحاً كل الوضوح في حقيقة الحقائق وهي الوجدانية ، فما من رسول ولا نبي إلا دعا قومه للإيمان بالله الواحد الأحد ، وبأن رسول الله محمد ﷺ هذه الحقيقة بقوله الجامع : « أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي : لا إله إلا الله » ، إن الله واحد لا شريك له .. وتلك حقيقة نطالعها في كل ما تقع عليه أبصارنا ^(١) .

ورغم ما تعرض له الإنجيل من اختلاف وجهات النظر ومن ترجحات تفسيرية تنطق حسب نظرة أصحابها ، إلا أننا نستطيع أن نعثر على خيط التوحيد متناثراً هنا وهناك بين الرُّكَّام ، ونستطيع أن نسوق هنا بعض العبارات ذات الدلالات الصريحة على الوجدانية ، منها :

* في سفر الخروج نجد هذه العبارة : « لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة ما ، مما في السماء من فوق ، وما في الأرض من تحت ، وما في الماء من تحت الأرض ، ولا تسجد لهن ولا تعبدهن » .. وهذا من العهد القديم « التوراة » حسب ما هو موجود الآن في أيديهم .

* في يوحنا (٥ : ٤٤) : « تقبلون مجداً بعضكم من بعض ، والمجد الذي من الإله الواحد لستم تقبلونه » .

« ليس إله إلا واحد » (كور ٨ : ٤)

وهذه النصوص واضحة وصريحة في أن الإله واحد لا شريك له .. وهو ما يتمشى مع الفطرة السوية والعقيدة الصحيحة .. وهكذا نصل إلى أن الحق الأوحى ، والحقيقة التي لا يختلف عليها أحد ، هي أن الله واحد لا شريك له . وقد أعظمت الرسائل النكير على كل من يتخذ من دون الله شركاء .

(١) ومن أوضح الأدلة على أن التوحيد هو الأصل أن كل من اتخذ لله نداً أو شريكاً أو ادعى له الولد يبدأ بهذا ثم ينتهي إلى القول بالتوحيد ، فالثلاثة واحد ، أو الأصنام ليست سوى وسيلة للوصول إلى الله الواحد ، وهكذا .. فتأمل .

ويجلى القرآن هذه الحقيقة فى قوله تعالى : ﴿ إِن هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾

(النجم : ٢٣)

ويبين الله تعالى الحقيقة الواضحة يوم القيامة : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ﴾ .

(البقرة : ١٦٦)

﴿ فَالْقَوْلُ إِلَيْهِمْ الْقَوْلُ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ * وَالْقَوْلُ إِلَى اللَّهِ يَوْمَذِ السَّلَامِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ .

(النحل : ٨٧ ، ٨٧)

والخارج على هذه الحقيقة خارج على حكم الله تعالى ومنكر للحقيقة ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾

(النساء : ٤٨)

وقال : ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَسِرَ مِنَ السَّمَاءِ فَتُخَطَفُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَىٰ بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾

(الحج : ٣١)

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ..

المسيحية بين العقل والأوهام

من اللافت للنظر أن زعماء المسيحية اللاهوتيين .. ونظراءهم من المفكرين يحاولون دائماً تجاوز أحكام العقل عند تناول أمور العقيدة زاعمين أنه ليس للعقل دور فى مثل هذه الأمور .

ولعلنا فى حاجة إلى استعراض بعض آراء الكتاب فى هذا الصدد ، يقول أحد الكتاب : « وهذه الكائنات الثلاثة - يقصد الأقانيم فى زعمهم - لا تخضع لمفهومنا البشرى لأنها تختلف كل الاختلاف عن جميع الكائنات التى عرفناها .. ونعرفها » ثم يستمر قائلاً : « أما وإننا بعقلنا البشرى نعجز عن فهم هذه الحسبة السماوية ، إذاً فهى ليست من اختراعنا الأرضى » ^(١) . بهذا يحاول الكاتب أن يخرج بالأمر عن دائرة التفكير العقلى ، متجاهلاً المنطقية فى التفكير كما سنرى قريباً .

(١) كتاب : الله واحد ، تأليف بولس فرج ، ص ٤٣ .

ثم يعلق الكاتب نفسه على بعض ما ذكره فيقول : « ... فهذه الألفاظ في تراكيبيها ليست صحيحة لغوياً لأنها لا تسير على منهج اللغة ، ولكن ما حبلتنا ونحن نتكلم عن كائن إلهي موجود قبل اللغة ، ثم أيهما أسهل في الكسر هل الأسهل أن نكسر اللغة ... أم نكسر هذا الكائن الإلهي لكي يتفق مع اللغة ؟ ... » .

نرى - إذن - أن العقيدة عند الكاتب لا تسير النظام العقلي البشري كما لا تسير النظام اللغوي البشري ، وكأن الخالق - سبحانه - كان عاجزاً عن أن يخلق الإنسان ، ويعدل في عقله ولسانه لكي يستقيم نظام العقيدة كما يريد الله سبحانه وتعالى .

ونقف أمام كاتب آخر يُقدِّم للمفكرين مفتاحاً للتهرب من حكم المنطق ، فيقول : « ويدل الاختيار على أن أفراد بعض الآيات المقدسة والتشبيث بظاهر معناها فقط قد أدى ويؤدي إلى ضلالات كثيرة ومضرة » ^(١) .

فقد دلت التجربة العقلية - عندهم - على أن التشبيث بظاهر العبارات مدعاة للضلال .. إذن فلا بد لكل إنسان أن يعطل عقله ويقبل قولهم ، وكأن تفسيرهم أجلى وأوضح من دلالات الكتاب المقدس عندهم .

ويُفسر نفس الكاتب ^(٢) : « تجربة إبليس للمسيح حين طلب منه أن يطرح نفسه ... حسب اعتقادهم فيقول : إن الوجه الآخر لهذه التجربة هو دعوة إبليس للمسيح ليتخذ سياسة الإدهاش العقلي وسيلة بها يجعل الناس يؤمنون به فيعتمد على قوة المعجزة لا على قوة الحق وعلى الإقناع الفكري لا على الشعور القلبي » .

هكذا ببساطة يجرد الكاتب عقيدته من مفهوم العقل والتفكير العقلي ، ويرى التفكير العقلي وسيلة لسلطان الشيطان ، فيقول : « يكون إبليس قد حفظ سلطته على الناس » . نكتفي بهذه الإشارات للتدليل على أن زعماء المسيحية يحاولون أن يسلبوا أتباعهم نور العقل .. ليقودوهم بالهوى بعيداً عن سلطان العقل ونوره .

مجال العقل

في الحديث السابق وجدنا أن سلطان العقل محدود بحدود عالم الشهادة ، وأما سلطانه

(١) سيرة المسيح ، أعادت كتابته كنيسة قصر الدوبارة ، ص ٨٩ .

(٢) المصدر السابق .

على عالم الغيب فمحدود بما يعلمه عن طريق الوحي الإلهي .. ولقائل أن يقول إن زعماء المسيحية يروضون أتباعهم على الالتزام بالوحي الذي يعتقدون أنه حق ، فهم يوقنون العقل عند حدود الوحي .. فالثالث - حسب زعمهم - موجود في الإنجيل ، والحقيقة خلاف ذلك إذ إن هناك بعض الحقائق التي يجب إظهارها للباحثين ومنها :

١ - الوحي في المسيحية .

٢ - الإله وخضوعه لقانون المادة عندهم .

٣ - مسألة الخطيئة .

وهذه أمور لا بد من الوقوف عندها وإخضاعها لمقاييس العقل والمنطق ، وإلا انهارت الرسائل التي ما نزلت إلا لتخاطب الإنسان بما يفهم ويعقل ، وتأخذ بيده عن طريق إمكانياته التي منحها له الله سبحانه وتعالى .

الوحي الإلهي

حينما يخضع الوحي في المسيحية للعقل لا نسأل - بداهة - عما إذا كان هناك وحي للمسيح عيسى بن مريم أم لا ؟ ولكن سألنا عما في أيدي النصارى من كتب وأناجيل وهل تعبر عن حقيقة الوحي كما نزل من السماء ؟

والتبادر إلى الذهن مما يقوله كتاب المسيحية أن ما بأيديهم يمثل حياً منزهاً ؛ ولا سبيل عندهم إلى الشك فيه حتى ليقول قائلهم : « ... ولكن قادة المسيحية شعروا بضرورة تدوين أخبار حياة المسيح لتبقى مرجعاً .. بعيدة عن كل شبهة أو تلاعب أو تحريف ... فعمد البعض بروحي من الروح القدس إلى تدوين الإنجيل في كتابه فكانت الروايات الأربع التي نسميها الأناجيل الأربعة » (١) .

وهكذا نرى القاطع والجزم بكل شيء فهي بعيدة عن كل شبهة ... إلخ ، وهي وحي من الروح القدس إلى الكتاب الأربعة الذين كتبوها ، فهل هذا الكلام صحيح ؟ .. وللإجابة على ذلك فلا سبيل لنا إلا كتابات المسيحيين أنفسهم ، وأناجيلهم ، نستشهد بها .

(١) المرجع السابق ، ص ١٥ ، ١٦ .

* يقول لوقا فى أول إنجيله : « إذا كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة فى الأمور المتيقنة عندنا كما سلسها إلينا الذين كانوا منذ البدء معانين وخداماً للكلمة ، رأيت أنا أيضاً إذ قد تتبعت كل شىء من الأول بتدقيق أن أكتب على التوالى إليك أيها العزيز ثاوفيلس » ، ويشير هذا النص إلى الآتى :

* إن هناك الكثيرين الذين ألفوا قصة ، والمسألة لا تعدو رغبة كل واحد فى أن يكتب قصة ، حكاية ... إما لنفسه أو لبعض أصدقائه .

* إن كتابة لوقا لقصته كانت بدافع من عند نفسه إذ رأى أن يكتب .

* إن قصة لوقا كانت رسالة شخصية إلى « العزيز ثاوفيلس » .

وهكذا ينقض الإنجيل ما يزعمه كتاب المسيحية من أن ماكتبوه كان بالوحى من الروح القدس .. وهو ما سنتأكد منه بعد قليل .

يقول أحد الكتاب : « أما يوحنا فقد كتب البشرى بعد انتشار المسيحية فكتب لتوضيح بعض الأمور . وللدرد على بعض الأفكار التى دخلت إلى التعليم المسيحى » ^(١) فكتابة يوحنا - إذن - مجرد استجابة لرغبة كاتب فى الرد على بعض الأفكار بصرف النظر عن نوعية هذه الأفكار ، فأين الوحى هنا ؟

وهناك نقطة هامة لا يلتفت إليها كثير من الباحثين وهى مرتبطة بما قاله لوقا فى بداية كتاباته .. ذلك أن اختيار الأناجيل الأربعة قد تم بعد قرون من حياة المسيحية ، إذ عقد المجمع المسكونى الأول سنة ٣٢٥ م أى بعد المسيح بأكثر من ثلاثة قرون كاملة ... والسؤال الذى يفرض نفسه الآن : كيف عاشت الكنيسة هذه القرون بلا كتاب معين ؟ إذ لا يستطيع أحد أن يزعم أن الكنيسة كانت تعيش على كتاب من هذه الكتب أو غيرها. ولا سبيل إلى الجزم بشىء فى هذا الصدد .

والأخبار تدلنا على أن المجتمعين فى (نيقية) حيث الاجتماع المسكونى الأول ، كانوا مئات من الطوائف والأفراد ، ويبد كل منهم كتاب يردد أن يقدمه ولما احتدت المناقشات جمع قسطنطين عدداً قليلاً - حوالى ثلث المجتمعين - وأقرأوا بعض الرسائل ، وكان إقرار هذه الرسائل خالياً من كل سند عقلى أو شرعى ، إلا سند الإمبراطور ، وما

(١) المرجع السابق ، ص ١٥ ، ١٦ .

يدلنا على ذلك أن كثيراً من الطوائف لم تقتنع بما وصل إليه المجتمعون في (نيقية) ،
فمثلاً :

* أُقيمَ مَجْمَعٌ آخر في (صور) تحت رعاية نفس الامبراطور بعد الجمع الأول
بسنوات معدودات (٣٣٥ أى بعد عشر سنوات تقريباً) ووصل فيه المجتمعون إلى عكس
ما وصل إليه أصحاب المَجْمَع السابق .

* إن إنجيل (برنابا) ظلّ متداولاً ، مقروءاً حتى صدر الأمر البابوي بتحريمه بعد
مجمع نيقية بأكثر من مائة وخمسين سنة .

وقد أصدر البابا جلاسيوس الذى اعتلى عرش البابوية سنة ٤٩٢ أمراً بتحريم قراءة
مجموعة من الكتب ، ومنها إنجيل برنابا الذى يتطع بوحداية الله وأن المسيح عبد الله
ورسوله وأنه لم يَصْلُبْ .. بل ويتنبأ بالرسول محمد ﷺ^(١) .

* ولعل فيما يرويه المؤرخون عن قضية إسلام الصحابي الجليل سلمان الفارسي
ما يؤنس به لتوضيح الفكرة ، فلقد كان سلمان ابناً لأحد الأثرياء ، وكان يعمل في
الإشراف على ضيعة أبيه ، وقد سئم من التردد على معابد النار الوثنية في بلاد فارس ،
فمر ذات يوم بصومعة أحد الرهبان فأعجبه عبادته فظلّ يختلف إليه حتى عرف أبوه بأمره
فحبسه ، ولكنه أفلت من الحبس وذهب إلى الراهب ولازمه حتى حضرته الوفاة ، فقال
سلمان للراهب : بماذا توصيني ؟ فقال له : يا بني لم يبق في هذه البلاد أحد على ما
نحن فيه ، ولكن أظننا زمان يبعث فيه نبي في بلاد العرب من ولد إسماعيل ، فانطلق
سلمان مع قافلة أعطاهم ما يملك على أن يأخذوه معهم إلى جزيرة العرب ، ولكنهم
غدروا به وقيدوه ثم باعوه رقيقاً ، وعاش سلمان في الرق حتى أكرمه الله بالإسلام
فأعتق^(٢) . وهذه رواية - كما قلنا - نأنس بها لتوضيح مدى الانهيار الذى لحق
بعقيدة النصارى .. وحيث ادلهمت الظلمات واشتدت الحاجة إلى النور ، وكان النور في
القرآن ورسول الإسلام .

وإذا كان الأمر على هذه الصورة ، فهل يجوز لنا قل أن يُسَلِّمَ بما تسوقه الكنيسة من
إطار العصمة حول الوحي في المسيحية ؟

(١) انظر كتاب : محمد في التوراة والإنجيل والقرآن ، تأليف إبراهيم خليل أحمد ، ص ١٤٠ .

(٢) راجع في قصة إسلام سيدنا سلمان رضى الله عنه كتب التراجم مثل : حلية الأولياء لأبى نعيم ،
والطبقات الكبرى لابن سعد .

لقد حسم القرآن الكريم قضية الوحي فقال تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾
(النساء : ٨٢)

ووصف الوحي أيضاً في قوله تعالى : ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾
(الزمر : ٢٨)
وغير ذلك من الآيات البينات التي لا تستهين بعقل الإنسان وفكره ... والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

الإله وخضوعه لقانون المادة

إنَّ الإله في الإسلام مثلاً لا تُدركه الأبصار ولا تُحيط به العقول ، وهذا أمر مقبول إذ الديانة الإسلامية اعتبرت الإله غيباً مطلقاً ومخالفاً للمادة كما قال تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾
(الشورى : ١١)

ولذلك فللعقل البشري حدوده التي يجب أن يلتزمها عند مناقشته لقضية الألوهية ، وقد زلّت أفهام بعض فلاسفة المسلمين حينما توغلوا في البحث في ذات الله تعالى ، ووقعوا - بقصد أو غير قصد - في التجسيم والتشبيه ، وذلك ما يرفضه الإسلام ^(١) .

أما الإله في المسيحية فيزعمون أنه تجسّد وصار بشراً سوياً ، فهو قد مرّ بالطريق الذي ينزل فيه كل البشر إلى الأرض من بطن المرأة فرحمها ، وعاش مع أمه ، ثم تعلم ، وخدم في الهيكل ، وأكل وشرب ، وتحدث مع الناس ، وفرح وحزن ، وحضر الأفراح ، وطُرد ، وأمسك به طالبوه ، ونفذوا فيه حكم الإعدام كما زعم النصارى .

* نعم خضع المسيح لكل قانون مادي ... أفيجوز أن يخضع الإله - عند المسيحيين - لكل قوانين المادة إلا قانون العقل ؟ وهل يرفض عاقل من المسيحيين استخدام العقل للوصول إلى صحة العقيدة ؟ . وهل كان الإله عاجزاً - سبحانه - عن أن يجد صيغة ملائمة يفتح بها البشر من خلقه بصحة الثالث المزعوم وصدق الصلب عن الخطيئة ؟

إنَّ الله خلق العقل ليميز به الإنسان عن سائر خلقه ، فلماذا يتصادم القول بالتثليث مع العقل ؟ لماذا لا نجد توافقاً عقلياً في مقولات كثيرة في الديانة المسيحية ؟ أهى غفلة

(١) استغل بعض الباحثين من غير المسلمين أقوال هؤلاء الفلاسفة وجمعوها ليدلّوا بها على القول بالتجسد والثالث ، وهم يعلمون أن الحكم للقرآن والسنة في موضوع الألوهية ، لا لقول أى بشر مهما كان .

من الله سبحانه ؟ أم جهل منه - تعالى عن ذلك علواً كبيراً - بطبيعة البشر فاستعلن لهم - حسب زعمهم - بصورة بعيدة عن عقولهم ؟ أم أنها ألغاز قصد بها الإله عندهم أن يهلك البشر من حيث أراد أن ينجيهم ؟

الحقيقة أننا نرى أن الواجب على كل إنسان أن يستعمل عقله ، ولا يعطله ، فليس في المسيحية - فيما نرى - أمور اعتقادية يجب أن يتوقف العقل عندها ، بل إن كل أمور العقيدة في المسيحية يجب أن تخضع لحقيقة العقل .. كما خضعت هذه الأمور لقوانين المادة الدنيا ، والعقل بها أولى .

قد يقول لك قائل خذ هذه المسألة بروحانية ، وعش فيها بوجدانك وتأملها بعاطفتك حتى تستقر في نفسك ، وهذا - لعمر الحق - عين التشويش ، إذ لا يفعل الوثني أو المشعوذ سوى ذلك حتى يدخل إلى النفوس ، ويتحكم في الناس ، بل ماذا يفعل الشيطان بالناس غير ذلك ؟ إنه يدعوهم إلى الهوى .. إلى الشهوات ويعطل عقولهم ، فيصل بهم إلى الضلال .. نعوذ بالله من ذلك .

وقد يتساءل البعض ، ما سر إقحام قضية الألوهية وخضوعها للعقل في هذا المجال ، والبحث دراسة عن الخطيئة والخلاص منها في الأديان الثلاثة .. وجوابنا ما سبق أن قلناه ونكرره أن ماهية الخطيئة والخلاص في المسيحية تتشابه مشاربها وتتعدد وجهاتها .. فلا يتفك البحث فيها عن البحث في غيرها وخصوصاً الألوهية والوحي .

إن نظرة المسيحيين للخطيئة وتحديد مفهومها جعلهم ينزلقون إلى القول ببنة المسيح لله - سبحانه وتعالى - ويذهبون بالأمر إلى أن المسيح صلب تكفيراً عن خطيئة البشر . وهكذا تداخلت الأمور مما حدا بنا إلى الإشارة إلى وجوب خضوع أمور العقيدة - في المسيحية - برمتها إلى العقل .. ولا مجال غير ذلك .. أمام من ينشد الحقيقة .. أما معصوب العينين فلا شأن لنا به .

صَلَبُ الْمَسِيحِ فِدَاءً عَنِ الْخَطِيئَةِ

يرى المسيحيون أن العالم من عهد سقوط آدم في الخطيئة ، وهبوطه وبنيه إلى الدنيا .. مبتعد عن الله بسبب هذه الخطيئة ^(١) ولا أدري مصدر هذا الاعتقاد فلم أجد له سنداً

(١) انظر : محاضرات في النصرانية ، للإمام محمد أبى زهرة ، ص ١٢٥ .

شرعياً .. أو نصّاً مقدساً - عندهم - من التوراة أو الإنجيل سوى ما ورد من إخبار عن ذلك . والحق أنه من العجيب أن يخلو الكتاب المقدس من بيان واضح ونصوص صريحة لا تختمل التأويل حول هذه النقطة التي يقوم عليها المعتقد المسيحي كله تقريباً .. ونسوق بعض عبارات الإنجيل التي بنى عليها المسيحيون أمر الخطيئة العامة :

* « وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَصِيرَ فِيكُمْ أَوَّلًا يَكُونَ لِلْجَمِيعِ عَبْدًا . لَأَنَّ ابْنَ الْإِنْسَانِ أَيْضًا لَمْ يَأْت لِيُخْدَمَ بَلْ لِيُخْدَمَ »
(مرقس : ١٠ : ٤٤ ، ٤٥)

* « أَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ : انْقَضُوا هَذَا الْهَيْكَلُ وَفِي ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ أَقِيمُهُ ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ فِي سِتِّ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً بَنِيَ هَذَا الْهَيْكَلُ فَأَنْتَ فِي ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ تَقِيمُهُ ، وَأَمَّا هُوَ فَكَانَ يَقُولُ عَنْ هَيْكَلِ جَسَدِهِ ، فَلَمَّا قَامَ مِنَ الْأَمْوَاتِ تَذَكَّرَ تَلَامِيذَهُ أَنَّهُ قَالَ هَذَا .. فَآمَنُوا بِالْكِتَابِ وَالْكَلَامِ الَّذِي قَالَهُ يَسُوعُ »
(يو : ٣٠ : ١٨ - ٢٢)

* « انظر رسالة رومية (٣ : ٢٣) وما بعدها : « إِذَ الْجَمِيعُ أَخْطَأُوا وَأَعْوَزَهُمْ مَجْدُ اللَّهِ مُتَبَرِّرِينَ مَجَانًا بِنِعْمَتِهِ بِالْفِدَاءِ الَّذِي يَسُوعُ الْمَسِيحُ فَأَيْنَ الْافْتِخَارُ ؟ قَدْ انْتَفَى ... إِذَا نَحْسَبُ أَنَّ الْإِنْسَانَ تَبَرَّرَ بِالْإِيمَانِ بَدُونِ أَعْمَالٍ النَّامُوسِ ... » .
(انظر الرسالة إلى أهل رومية ٥ : ١٠ وما بعدها) .

* « وَفِي الْغَدِ نَظَرَ يُوْحَنَّا يَسُوعَ مُقْبِلًا إِلَيْهِ فَقَالَ هُوَذَا حَمَلُ اللَّهِ الَّذِي يَرْفَعُ خَطِيئَةَ الْعَالَمِ ... »
(يو : ١ : ٢٩)

وهذه النصوص - في رأيهم - تتحدث عن الفداء - كما يتصورونه - فداء بالدم ، كى تُغْفَرَ الخطيئة الأبدية التي لا يمحوها شيء في قانون الله عندهم سوى ما حدث .

والواقع أن مثل هذه النصوص لا تُجيب على تساؤلنا ، فنحن نسأل : هل حقاً هناك خطيئة توارثها الأبناء عن الآباء من لَدُنْ آدَمَ ؟ . فَإِنْ قِيلَ نَعَمْ سَأَلْنَا عَنِ النَّصِّ الْمَقْدَسِ الَّذِي يَجُزِمُ بَوُجُودَ مِثْلِ هَذِهِ الْخَطِيئَةِ ، أَوْ مَا الدَّلَائِلُ الْعِلْمِيَّةُ وَالْعَقْلِيَّةُ الَّتِي تُؤَيِّدُ ذَلِكَ ؟

إن العبارات التي سُقِنَاها تتحدث عن نتيجة لا عن مقدمات ، وهى أن هناك حمل الله .. وأن الهيكل سينقض ... إلخ ، ولكن لماذا ؟ ليرفع خطيئة العالم ، وما هى ؟ وما دليل وجودها وعدم غفرانها ؟

إن إصرارنا على أن يكون هناك نصٌ ليس مرجعه التعتن ، وإنما مرجعه الحرص على

الحقيقة ، لأن الأمر يتعلق بموت إله أو نصف إله كما يدعون ، فلا يُعقل ألا يسبق هذا العمل الخطير إشعار يبينه بحيث لا لبس ولا غموض .

أم هل يجوز أن يترك هذا الأمر للأخذ والرد تتصرف فيه الأفهام على مقدارها وترتكز فيه النفوس على هواها ؟

إن الأمر في مجال علاج الخطيئة ، فكان يجب ألا يكون هناك مجال أو باب مفتوح للخطيئة مرة أخرى ، فندع الناس للحدس والوهم ، وبذلك يقع الكثيرون في الخطأ من حيث أرادت العناية الإلهية أن ترفع عنهم الخطيئة .

وخلاصة القول : أننا لا نُعوّل إلا على النصّ القاطع الصريح الدال على وجود خطيئة أبدية .. وهذه الخطيئة لا تُغفر إلا بالفداء ، أما فهم الفاهمين وتأولات المتأولين فلا تساوى عندنا شيئاً .

والآن نستعرض وجهة نظر المسيحيين في الخطيئة وفدائها .. ومدى تصويرهم لحقيقتها عندهم :

يرى المسيحيون أن من صفات الله العدل والرحمة ، وبمقتضى العدل كان على الله أن يعاقب ذرية آدم بسبب الخطيئة التي ارتكبها أبوه وطرد بها من الجنة ، واستحق هو وأبناؤه البعد عن الله بسببها . وبمقتضى صفة الرحمة كان على الله أن يغفر سيئات البشر ، وحلاً لهذا الإشكال العويص لم يكن هناك من طريق للجمع بين العدل والرحمة إلا بتوسط ابن الله وحيده وقبوله أن يظهر في شكل إنسان وأن يعيش كما يعيش الإنسان ثم يصلب ليُكفّر عن خطيئة البشر^(١) .

ويصور الإنجيل هذه القضية بقوله : « وإن ابن الإنسان قد جاء ليخلص ما قد هلك ، فبمحبتة ورحمته قد صنع طريقاً للخلاص .. لهذا كان المسيح هو الذي يُكفّر عن خطايا العالم ، وهو الوسيط الذي وفّق بين محبة الله تعالى وبين عدله ورحمته ، إذ إن مقتضى العدل أن الناس كانوا يستمرون في الابتعاد عن الله بسبب ما اقترف أبوه ، ولكن باقتران العدل والرحمة وتوسط الابن الوحيد وقبوله للتكفير عن خطايا الخلق قرب الناس من الرب بعد الابتعاد » .

(١) راجع : محاضرات في النصرانية ، للإمام محمد أبى زهرة ، والمسيحية ، د. أحمد شلبى .

يقول القس إبراهيم لوقا : « إِنَّ الْمَسِيحِيَّةَ تَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ - لَكِي يَجْمَعُ بَيْنَ عَدْلِهِ وَرَحْمَتِهِ فِي تَصَرُّفِهِ مَعَ الْإِنْسَانِ عَقِبَ سَقُوطِهِ - دَبَّرَ طَرِيقَةَ فِدَائِهِ بِتَجْسِيدِ ابْنِهِ الْحَبِيبِ وَمَوْتِهِ عَلَى الصَّلِيبِ نِيَابَةً عَنَّا ، وَبِهَذَا أَخَذَ الْمَذَلَّ حَقَّهُ وَاكْتَمَلَتِ الرَّحْمَةُ فَتَالَ الْبَشَرُ الْعَفْوُ وَالْغُفْرَانُ وَهَذِهِ هِيَ نَظَرِيَّةُ الْغَدِيَّةِ » (١) .

وهكذا حاولوا - قدر جُهدهم - شرح قضية الخلاص شرحاً لا يثبتُ أمامَ النظر السديد .
* وأول ما نلاحظه على هذا التصوير أنهم أثبتوا عجز الله - تعالى عن ذلك علواً كبيراً - عجزاً لا يصح أن تكون له بعده ألوهية ، فهو - سبحانه - عاجز في زعمهم عن التوفيق بين صفاته إذ أثبتوا تناقضها ، كما هو واضح .

* وما نلاحظه أيضاً أنهم توهموا أن العدل الإلهي قد أخذ مجراه بصلب الابن الوحيد المزعوم ، في حين أن الصلبَ يمثل أقسى أنواع الظلم الإلهي - لو حدث وتم كما يقولون - فأى عدل في أن يؤخذ برىء بذنب لم يرتكبه ؟ وأى عدالة في أن ينجو شخص من جريمة ألصقت به ؟ وما ذنب الأبناء في أن يتحملوا خطيئة أبيهم الأول آدم ويأتى آخر ليخطئها عنهم ؟

هذه ملاحظات عابرة ، ولنا وقفة أخرى مع هذه القضية إن شاء الله تعالى .

الكنيسة وغفران الذنوب

وما يلفت الانتباه أن الكنيسة قد أعطت لنفسها الحق في أن تعفو عن الخطايا وتَحُطُّ الذنوب عن المذنبين ، وقد اشتهر في أوروبا « صك الغفران » الذي كان يعطى لمن أراد في مقابل مبلغ من المال ، ولعل نص الصك يغنيننا عن التعليق عليه :

« ربنا يسوع المسيح يرحمك يا ... (يكتب الاسم) ويحلك باستحقاقات آلامه الكلية القدسية ، وأنا بالسلطان الرسولى المعطى لى أحلك من جميع القصاصات والأحكام والطائعات الكنيسية التى استوجبتها ، وأيضاً من جميع الإفراط والخطايا والذنوب التى ارتكبتها مهما كانت عظيمة وفظيمة ، ومن كل علة ، وإن كانت محفوفة لأيينا الأقدس البابا والكرسى الرسولى ، وأمحو جميع أقدار الذنوب وكل علامات الملامة التى ربما جلبتها على نفسك فى هذه الفرصة ، وأرفع القصاصات التى

(١) نقلاً عن كتاب : المسيحية ، د. أحمد شلبي .

تلتزم بمكابدتها في المطهر ، وأردك حديثاً إلى الشركة في أسرار الكنيسة وأقرنك في شركة القديسين ، أردك ثانية إلى الطهارة والبر اللذين كانا عند معمديتك حتى إنه في ساعة الموت يُلَقَّ أَمَامَكَ الباب الذى يدخل منه الخطاة إلى محل العذاب والعقاب ، ويفتح الباب الذى يؤدى إلى فردوس الروح وإن لم تمت سنين مستطيلة ، فهذه النعمة تبقى غير متغيرة حتى تأتى ساعتك الأخيرة باسم الآب والابن وروح القدس ^(١) .

وهكذا تُعطى الكنيسة نفسها الحق فى أن تمحو الذنوب والخطايا وتُسقط العقوبات « والقصاصات » فى الماضى .. والحاضر .. والمستقبل ، وتزعم أنها تملك أن تفتح أبواب الفردوس الروحي وتغلق أبواب العذاب .

ولعل صلح الغفران له صور لا نعرفها ، منها الشفهي ، والفردى والجماعى ، بل ولعله أخذ مجالات أخرى فليس من الضروري أن تصدر الكنيسة هذا الصلح التقليدى ، وقد سقناه لمجرد التنويه بدور الكنيسة فى الخلاص .

الاعتراف للكاهن

يعتقد النصارى أنه لا يمكن دخول الجنة إلا بعد الإقرار بالذنوب للقسيس ، وأن كل مَنْ يُخْفِي منه ذنباً فلا ينفعه إقراره ، فهم فى كل سنة عند صيامهم يمشون إلى الكنائس ويقرؤون بجميع ذنوبهم للقسيس الذى يقوم بكل كنيسة ، وفى سائر أوقاتهم ، ولكن لا يقر أحد بذنوبه إلا إذا مرض وخاف الموت ، فإنه يبعث إلى القسيس فيصل إليه ويُقر له بجميع ذنوبه فيغفرها له ، ويكون الإقرار مصحوباً بالتأسف والندامة والعزم الثابت على ترك الخطيئة وعدم الرجوع إليها ، وهم يعتقدون أن كل ذنب غفره القسيس فإنه مغفور عند الله تعالى ^(٢) .

ويتبين لنا من كل ذلك أن الخلاص فى المسيحية على ثلاثة أوجه :

الأول : الخلاص العام بالفداء .. حيث قدّم المسيح نفسه على الصليب - حسب زعمهم - لتكفير خطيئة البشرية .

الثانى : الخلاص بمغفرة الكنيسة لمن يشاء على أى وجه ترضاه الكنيسة (صلح الغفران .. نموذج لذلك) .

(١) راجع : محاضرات فى النصرانية ، والمسيحية (مرجعان سابقان) .

(٢) تحفة الأريب فى الرد على أهل الصليب ، عبد الله الترجمان الأندلسى ، ص ٩١ .

الثالث : الخلاص بالاعتراف تفصيلاً أمام القسيس .

وقد قمنا بالتعليق على بعض النقاط الخاصة بالموضوع في أماكنها من البحث انتظاراً للتعليق العام على القضية كلها من وجهة نظرنا ، والله الموفق إلى الصواب .

تعليق عام

نود أن نسأل في مجال الحديث عن الخطيئة والخلاص منها في المسيحية ، هل حقاً صُلبَ المسيح تكفيراً عن خطايا البشر ؟ ونستطيع أن نحسم الأمر - من وجهة نظرنا نحن المسلمين - فنقول : إنَّ المسيح لم يَصْلَبْ وذلك بنص القرآن الكريم .. وليس هذا بالأمر الجديد فهو مقطوع به منذ نزول القرآن الكريم ، وآمن به المسلمون .

ولكن ما نقطع به نحن المسلمين - يقطع به الإنجيل ذاته في عبارات صريحة وقاطعة ^(١) فقد تنبأ المسيح بنجاته من القتل ، ولنقرأ ما جاء في إنجيل يوحنا (٧ : ٣٢ - ٣٤) حين أرسل الفريسيون ورؤساء الكهنة خداماً ليمسكوه فقال لهم يسوع : أنا معكم زماناً يسيراً بعد ، ثم أمضى إلى الذي أرسلني ، ستطلبوني ولا تجدوني حيث أكون أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا ... » .

وهذا كلام صريح واضح الدلالة على أنهم لن يمسكوه ولن يقدروا عليه ؛ لأنه سيمضى إلى الذي أرسله .. وتعبير القرآن : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ (النساء : ١٥٧ ، ١٥٨) .. ويذكر (متى ٣٢ : ٣٩ ، ٢٤ : ١) ما قيل في آخر مواجهة عاصفة حدثت بين المسيح والكهنة اليهودي حيث قال لهم : « إني أقول لكم إنكم لا ترونني من الآن حتى تقولوا : مبارك الآتي باسم الرب ثم خرج يسوع ومضى من الهيكل ... » أي أنهم لن يروه بعد ذلك مطلقاً .. وهذا يدل على أنهم لم يصلبوه ، بل صلبوا غيره .

ومن الملابس التي ساقها الإنجيل لحادث الصلب يتبين لنا أن المصلوب شخص آخر تماماً ، فعندما اقتربت الساعة وأراد الكهنة أن يقبضوا على المسيح بحثوا عمن يدلهم عليه لا على مكانه .. إذ جعل الدليل العلامة أن يقبله .. فقد علم اليهود - إذن - أنهم يبحثون عن شخص غامض إذ كيف يتوهون عن شخصية المسيح عليه السلام وهو قد وعظهم وجادلهم وقام فيهم بآيات عظيمة ؟ وفي هذا دليل على صدق ما قاله لهم المسيح :

(١) انظر : المسيح في مصادر العقائد المسيحية ، المهندس أحمد عبد الوهاب ، ص ٢٠٧ .

« إنكم لا تروننى من الآن ... » وذلك فى آخر مواجهة بينه وبينهم .

جاء فى رواية يوحنا عن ساعة القبض على المسيح أنه خرج إلى الجنود ، وقال لهم إنه هو المسيح فتراجع الجنود وسقطوا على الأرض أكثر من مرة ، مما يدل على أن الجنود لا يعرفون من سيقبضون عليه وقد ذهبوا فى رعب غشى أبصارهم فأمسكوا بأقرب الناس إليهم واقتادوه .. فكان المقبوض عليه يهوذا الذى كان دليلهم كما تقول بعض الروايات . تروى الأناجيل قول المسيح لتلاميذه : « كلكم تشكون فى هذه الليلة » أى ليلة القبض عليه ومحاكمته ، ثم تحكى كيف أن بطرس سينكره ثلاث مرات قبل أن يصبح الديك .. وتقول الروايات إنه فعلاً أنكره ، بل وحلف أنه لا يعرفه .

وإذا كان لنا أن نستنبط شيئاً من هذا فإننا نقول إن المسيح - فعلاً - قد رُفِعَ ، والمقبوض عليه شخص آخر لا يعرفه بطرس ، أو يعرف أنه ليس المسيح حقاً ، ثم اختلطت عليه الأمور .

وهذه ملابسات تؤكد أن المسيح - حقاً - لم يُصَلَبَ ، بل إن الأمر لم يعد أن يكون خطأ شاع ، حيث صلب اليهود شخصاً ظنوه المسيح .. وأيدوا هذا الظن شفاءً لما فى صدورهم واستئماناً لأهوائهم ، وعلى هذا يكون أمر الخلاص لا أساس له من الصحة ، بل إنه محض أوهام لبسها عليهم الشيطان ، وزينها فى قلوبهم .

هل يجوز أن يكفر اخطيئة جسد الإنسان ؟

إن المسيح عليه السلام إنسان وله نسبه البشرى من جهة أمه ، فكيف يكفر عن خطيئة آدم بالتضحية بنفسه ؟

إن المسيحيين يصرون على أن المسيح - ابن الله فى زعمهم - قد لاقى مصيره المحتوم ليخلص البشر من خطاياهم ^(١) « فالذى اسمه يسوع (أى مخلص) هو الطبيب الشافى الذى يخلص من داء الخطيئة الربائى القتال المستولى على جميع بنى البشر » . وفى متى « اسمه يسوع لأنه يخلص شعباً من خطاياهم » (١ : ٢١) والنص - إذا صح - صريح كل الصراحة فى خصوصية الخلاص لشعبه دون غيرهم ، وهى صفة كل الأنبياء المرسلين قبل الإسلام .

(١) سيرة المسيح ، ص ٣٥ ، صادر من كنيسة قصر الدوبارة .

وإذا سائرنا الادعاء بالتجسيد ، والحلول كما يراهما المسيحيون .. فإننا مطالبون بضرورة فهم السر الذى من أجله حدث كل هذا .

الله يتجسد ، أو يرسل ابنه ليلبس الجسد الإنسانى فى بطن مريم .. لماذا ؟ ليُكفّر عن خطيئة آدم ؟ ولماذا لم يقع الاختيار على فداء آخر ؟ أى إنسان آخر ؟ فكل إنسان تتوفر فيه شبه من خصائص سيدنا عيسى المسيح عليه السلام ، مع التوقير والتعظيم للإعجاز فى خلقه عليه السلام .

* ففى كل منا نفخة إلهية .. نفخة الروح .

* ولكل منا جسد مادى .

وعيسى المسيح عليه السلام كذلك فيه الجانبان ^(١) ، فإن قيل إن الخطيئة فى حاجة إلى فداء أكبر من الإنسان ، إذ إن جسد الإنسان قد اختلط بالخطيئة وبالتالي لا يصلح فداء ، قلنا ، إن جسد عيسى هو من نفس نوعية جسد الإنسان .. فهو قد حمل فى بطن أمه وتغذى بلبنها ، وبالتالي فقد ورث عنها كل ما لها من خصائص مادية ، فإن كانت خطيئة آدم - كما يزعمون - قد دنست البشر وأبعدتهم عن الله ، فإن عيسى المسيح عليه السلام قد لبس جسداً مدنساً . مما يطل مزاعم التكفير من أساسها .

التكفير خاص بطائفة أم عام للبشر

سأضرب مثالا من حياتنا قبل أن أتحدث فى هذه النقطة ، فلو افترضنا أن جمهوراً كثيراً أقام فى بناء ضخم ، واستمر الإقامة فى هذا البناء ، وأحسن رئيس البلد أن هناك خطراً يهدد هؤلاء الناس فأرسل إليهم الرسائل والمكاتيب متتابعة ينصحهم أن يتركوا هذا المكان ، ثم أرسل لهم مندوبين عنه ، من وزرائه أو خاصته .

وكان فى كل مرة يستجيب البعض ويترك مكان الخطر إلى مكان آمن ، ويظل الآخرون على موقف الإصرار والرفض ، ولم يجد رئيس البلد إلا أن ينزل بنفسه إلى الميدان ليخلص هؤلاء المساكين مضحياً براحته ، ومعه إمكاناته .

لو حدث ونزل الرئيس بعد كل ما بذله من نصيح وتوجيه ، فهل يرضى بأن يكون

(١) والفارق أن النفخة الإلهية ابتدأ بها خلق عيسى عليه السلام ، وأما ما فى باقى البشر فهو من أثر النفخة الإلهية بعد تسوية آدم عليه السلام ، والله تعالى أعلم .

كـبعض وزرائه ، فيُخلَّص جزءاً ، ويظل الباقيون على حالهم ؟ أم أنه سيُصر - بما معه من إمكانيات وقدرات - على تخليص كافة المهتدين .. ويدفعهم إلى مكان الأمان ؟ .. نقول : لو أن الرئيس جاء مجرد ناصح ومُخلَّص لفريقٍ دون آخر لكان أعجز من بعض الذين أرسلهم ، إذ ربما استطاع بعض من بعث بهم أن يخلَّص أكثر مما خلَّصه الرئيس . وهكذا لا نرضى بديلاً إلا أن يكون للرئيس القدرة على تخليص هؤلاء المهتدين في البناء الواقع في مملكته . وإلا فليحتزل وليأت من هو أقدر .

ونعود فنسأل : لقد أرسل الله الرسل من لَدُنْ آدم ونوح إلى موسى عليه السلام ومن بعده من المرسلين .. ويدبى أن غرض هذه الرسائل كان لهداية الناس وإنقاذهم من الهلاك ، ثم يقول المسيحيون : إنَّ الله قد أرسل ابنه الوحيد ليموت على الصليب من أجل فداء البشر . فهل خلَّص هذا الابن البشر جميعاً من خطاياهم ؟ أم أنه لم يخلَّص سوى طائفة منهم ؟ فإن كان قد خلَّص البشر جميعاً بما معه من قوة وإمكانيات فلا داعي إذن لفعل الخير أو الإيمان ، أما إذا كان قد خلَّص طائفة من البشر - هم المؤمنون به - فهو لم يتميز عن غيره من الهداة أو الدعاة ، بل ربما تفوقوا عليه لأنهم بإمكانياتهم المحدودة صنعوا ما صنعه المسيح بإمكانياته الجبَّارة - على زعم أنه ابن إله - وعلى هذا فلم يكن هناك أيُّ داعٍ لنزوله ومهاتته إذ ليس لها مقابل يذكر .

فإن قيل إنه - بنزوله - قد خلَّصهم من الخطيئة التي تبعدهم عن الله تعالى ، ثم تركهم لشأنهم ، يبعد منهم من يبعد ويقترب منهم من يقترب ، قلنا : إنَّ هذا أيضاً لا يساوي شيئاً لأنه يعود إلى نفس منطلق النقاط السابقة ، فما قيمة إله ينزل فيرضى بالهوان من أجل خطيئة لم يستطع أن يستأصلها بل ظلت في طبيعة البشر ؟

الخطيئة ونسبة العجز إلى الله تعالى

إنَّ مفهوم الخطيئة والخلاص منها في المسيحية تدل على أنهم ينسبون العجز والقصور إلى الله سبحانه وتعالى :

فهو أولاً : قد عجز عن مغفرة الخطيئة لآدم فور وقوعها لأن الأمر قد احتاج - في مفهومهم - إلى أن يدبر الله طريقة للمغفرة .. وأخيراً اهتدى - بعد آلاف السنين - إلى إرسال ابنه لهذا الفداء .

ثم إنه ثانياً : عاش كالبشر يتحمل الأذى والمطاردة وهو لا يستطيع أن يفعل شيئاً ، ثم إنه استسلم لأعدائه يصابونه ويصقون في وجهه ويسقونه خلاً .
وهكذا نجد أن مفهوم الخطيئة والخلاص منها مرفوض بكل الأوجه .. عقلاً ونقلاً ..
ينطق بذلك القياس ، ونصرخ به الأناجيل ، فما هو مفهوم الخلاص الحقيقي ؟

مفهوم الخطيئة بين الأناجيل والرسائل

جدير بنا أن نتحدث عن الخطيئة كما تتصورها الأناجيل الأربعة المعتمدة في المسيحية ، والخطيئة كما هي في تصور الرسائل الملحقة بها ، لتتم لنا الصورة عن الخطيئة في المسيحية بصفة عامة ..

أولاً : الخطيئة كما تصوّرها الأناجيل

تصور الأناجيل الخطيئة تصويراً بسيطاً لا غموض فيه ولا إبهام ؛ لأن للخطأ جزاءه المعهود . ونقرأ عبارات في الأناجيل توضح ذلك ، ولنقرأ ما جاء في إنجيل متى في الموعظة على الجبل :

« فَمَنْ نَقَضَ إِحْدَى هَذِهِ الْوَصَايَا الصَّغِيرَى وَعَلَّمَ النَّاسَ هَكَذَا يُدْعَى أَصْغَرَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ ، وَأَمَّا مَنْ عَمِلَ وَعَلَّمَ فَهَذَا يُدْعَى عَظِيماً فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ ، فَإِنِّي أَقُول لَكُمْ : إِنَّكُمْ إِنْ لَمْ يَزِدْ بَرُّكُمْ عَلَى الْكِتَابَةِ وَالْفَرِيسِيِّينَ لَنْ تَدْخُلُوا مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ ، قَدْ سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ لِلْقَدَمَاءِ ، لَا تَقْتُلْ ، وَمَنْ قَتَلَ يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ الْحُكْمِ ، وَأَمَّا أَنَا فَأَقُول لَكُمْ إِنَّ كُلَّ مَنْ يَغْضَبُ عَلَى أَخِيهِ بِاطِّلاَءٍ يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ الْحُكْمِ ، وَمَنْ قَالَ يَا أَحْمَقَ يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ نَارِ جَهَنَّمَ ، فَإِنْ قَدَّمْتَ قُرْبَاناً إِلَى الْمَذْبَحِ وَهَنَّاكَ تَذَكَّرْتَ أَنَّ لِأَخِيكَ شَيْئاً عَلَيْكَ فَاتْرَكَ هُنَاكَ قُرْبَانَكَ قُدَّامَ الْمَذْبَحِ ، وَاذْهَبْ أَوَّلًا اصْطَلِحْ مَعَ أَخِيكَ .. »

قد سمعتم أنه قيل للقديماء : لا تزن ، وأما أنا فأقول لكم إِنَّ كُلَّ مَنْ يَنْظُرُ إِلَى امْرَأَةٍ لِيَشْتَهِيهَا فَقَدْ زَنَى بِهَا قَلْبُهُ ، فَإِنْ كَانَتْ عَيْنُكَ الْيَمْنَى تَعْشُرُكَ فَاقْلَعْهَا ..
احترزوا من أن تصنعوا صدقتكم قُدَّامَ النَّاسِ لِكَيْ يَنْظُرُوكُمْ ، وَإِلَّا فَلَيْسَ لَكُمْ أَجْرٌ عِنْدَ آبَائِكُمْ .

خبزنا كفافنا أعطينا اليوم ، واغفر لنا ذنوبنا كما تغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا ،

ولا تدخلنا في تجربة . لكن نجنا من الشرير ، فإنه إن غفرتم للناس زلاتهم يغفر لكم أيضاً أبوكم السماوى . وإن لم تغفروا للناس زلاتهم لا يغفر لكم أبوكم أيضاً زلاتكم » .
(متى : ٥ ، ٦ ، ٧) بتصرف (١)

وقد عددت الموعظة جملة من الخطايا نوجزها فيما يأتى :

* نقض الوصايا الصغرى ، ونشر ذلك بين الناس ، فهذه خطيئة لا تُغفر ، لأنه « يدعى أصغر فى ملكوت السموات » .

* التساوى فى البر مع الكتبة والفريسيين بعد خطيئة لا تُغفر لأنه حينئذ « لن تدخلوا ملكوت السموات » .

* القتل خطيئة تستوجب الحكم .

* الغضب بالباطل يستوجب الحكم ، كذلك فهو مساوٍ للقتل .

* من اتهم أخاه بالحق فإنه يستوجب نار جهنم .

* الزنا جريمة .

* النظر إلى المرأة بشهوة تستوجب قلع العين التى تعثرها .

* الرياء يحرم من الأجر .

وهذه خطايا أو آثام تستوجب العقوبة ، وقد جعلت الوصايا معاملة الله للإنسان ندأ لمعاملة الإنسان للإنسان .

* إن استرضاء الأخ مقدم على القربان ، لاسترضاء الله .

* تطلب الوصايا من الله المغفرة للذنوب جزاءً على مغفرة الناس بعضهم لبعض ، فمن غفر للناس غفر الله له ، ومن لم يغفر للناس زلاتهم لا يغفر لهم أبوهم السماوى .

وهكذا تلمس بجلاء ووضوح أن الخطيئة واردة فى السلوك البشرى ، وأن الباب مفتوح للتخلص منها بالتوبة ، وهكذا شأن الرسالة دائماً :

* التنبيه على خطر الذنوب .

* التحذير من ارتكابها .

(١) راجع : اتفاق البشائر ، ص ٢٩ وما بعدها . ولا نجد لموعظة الجبل أسراً إلا فى متى ولوقا ، أما الإنجيلان الآخران فلم يذكرنا عنها شيئاً كما يوضح الكتاب المذكور .

- * الوعيد الشديد لمن يرتكب الخطيئة وبعداً يتسق مع خطورة الذنب ، وشدة العثرة .
- * فتح باب الأمل أمام العصاة إذا تابوا ورجعوا وتسامحوا فيما بينهم .

وجاء (فى إنجيل متى : ١٢ : ٣١ - ٣٦) ، وفى (مرقس : ٣ : ٢٨ - ٣٠) ، عن الخطيئة التى لن تُغفر : « لذلك أقول لكم كل خطيئة وتجديف يُغفر للناس ، وأما التجديف على الروح فلن يغفر للناس ، ومن قال كلمة على ابن الإنسان يغفر له . وأما من قال على الروح القدس فلن يغفر له لا فى هذا العالم ولا فى الآتى .

يا أولاد الأفاعى : كيف تقدرون أن تتكلموا بالصالحات وأنتم أشرار ، فإنه من فضلة القلب يتكلم الفم . ولكن أقول لكم إن كل كلمة بطالة يتكلم بها الناس سوف يعطون عنها حساباً يوم الدين » .

وفى مرقس : « ... ولكن من جُدّف على الروح القدس فليس له مغفرة إلى الأبد بل هو مستوجب دينونة أبدية .. لأنهم قالوا إن معه روحاً نجسه ... » .

وفى هذه العبارات نلمس ما يأتى :

- * إن هناك خطيئة لا تُغفر ، ألا وهى التقوّل فى الغيب بلا علم ، والتجديف على الروح القدس ، ومن أنواع التجديف على الروح القدس :
- أن يقولوا إن معه شيطاناً أو روحاً نجسة .

- أو يقولوا عن الروح القدس ما ليس لهم به علم ، ويزعمون أنه إله فى الآلهة .

- * فرقت هذه النصوص فى الحكم بين الروح القدس وهو غيب عن الناس (ولعله جبريل) وبين ابن الإنسان ، فجعلت التجديف على الروح القدس لا يغفر ، أما من قال كلمة على ابن الإنسان ، فإنها من ضمن التجاديف التى تُغفر ، وهذا التفريق له دلالة الخاصة والعميقة ، إذ لو كان المسيح ابناً لله تعالى لكان التجديف عليه أشد فى الحكم ، وهذا مما يؤكد أن المسيح عبد الله ورسوله .

وهذا يجرنا إلى الحديث عن خطيئة حدّر منها المسيح عليه السلام . فقد جاء فى (متي : ١١ : ٢ - ١٩) أن يوحنا سمع فى السجن بأعمال المسيح فأرسل إليه ، وفيه : « العمى يبصرون ، والعرج يمشون ، والبرص يطهرون ، والصم يسمعون ، والموتى يقومون ، والمساكين يبشرون وطوبى لمن لا يعثر فى » وكذا جاء فى (لوقا : ٧ : ١٨ - ٣٥) .

والجملة الأخيرة ذات مغزى يجب ألا يتوه من القارئ ، فبعد هذه المعجزات العظيمة يجب ألا يعثر (أى يقع ويسقط) فى المسيح أحد ^(١) .. والعشرة التى حذر منها المسيح هى أن يزعم أحد أنه إله أو ابن إله ، لأن هذه الأعمال مدعاة للتهوير فى الحكم ، إذ قد لا يصدق أحد أنها معجزات أيد الله بها رسوله ، وليس مقبولا أن تفسر العشرة غير هذا التفسير إذ السياق يؤيده دون غيره . ومن هذا المنطلق قرأنا أن التجديف على المسيح (ابن الإنسان) ليس كالتجديف على الروح القدس .

وخلاصة القول : أن هناك خطايا وآثاماً ، منها ما لا يُغفر - فى عرف الأناجيل - ومنها ما يمكن أن يغفر .

وهذا يدل على عدم الحكمة من الصلب .. فإذا كان الصلب قد حدث - فى زعمهم - لرفع الخطيئة ، ثم وجدنا خطايا لن تغفر ، فليس للصلب أى دافع إلا أن يكون اتباعاً للهوى والضلال ، نعوذ بالله من ذلك .

ثانياً : الخطيئة فى تصور الرسائل المعتمدة لدى المسيحيين

وهذه الرسائل تبدأ بما يسمى « أعمال الرسل » وأول ما يلحظه القارئ على هذه الأعمال أنها مجهولة الهوية فلا يدري من كاتبها ، وذلك عكس الرسائل بعد ذلك فهى مُصدرة باسم كاتبها وهو بولس « غالباً » أو بطرس .. أما رسالة أعمال الرسل فلا يدري من الذى قام بكتابتها ^(٢) وإن كانت الرسالة تعلن اسم الشخص الذى كتبت الرسالة إليه وهو « ثاوفيلس » .

(١) ورد نص آخر يقطع بأن التحدير الوارد هنا من العشرة فى المسيح هو ما أوردناه أى لا يعثر ويضل فى حقيقته ، بل يظل على إيمانه بأن المسيح بشر رسول ولا يراد به أن يشتمه أو يسبه .. لأن النص التالى يقول « فكانوا يعثرون به » [متى ١٣ : ٥٧] ، [مرقس ٦ : ٣] وهذا حينما رفضه أهل الناصرة للمرة الثانية ، والفرق واضح بين العبارة التى أوردناها : « طوبى لمن لا يعثر فى » والعبارة الأخرى « فكانوا يعثرون به » فالأولى وردت عقب معجزات وحذرت من العشرة فى حقيقته باتخاذها إلهاً من دون الله أو ابناً لله .. أما الثانية فجاءت عقب رفض أهل الناصرة له فكانوا يعثرون به أى يسبونونه ويشتمونه .

(٢) قيل : إن كاتبها هو أحد كتّاب الأناجيل ، وهذا من أسباب القدح فيها والشك فى أصلها إذ إنها ليست وحياً .

ومما لاشك فيه أن كاتب هذه الرسالة شخص آخر غير كُتَّاب الأناجيل ، كما أنه ليس (شاول) الذى دعى (بولس) فيما بعد . وقارئ رسالة أعمال الرسل يتيقن من ذلك :
* فهى تتحدث عن أشياء لم يرها بولس الذى لم ير المسيح أبداً .

* كما أنها تتحدث عن (بولس) بصيغة الغائب ، فهو شاب يرضى بالقتل ويسر به .
* لا نسمع عن ذكر (شاول) إلا فى بداية الأصحاح التاسع .

مما يكاد يقطع بأن كاتب رسالة الأعمال ليس معروفاً فى الأوساط المسيحية الأولى ، ولا ندرى السرّ فى أن كل كُتَّاب الأناجيل أعلنوا عن أنفسهم ، كما أن كُتَّاب الرسائل والرؤى أعلنوا عن شخصيتهم إلا فى رسالة الأعمال .

وفى رسالة أعمال الرسل لا يتضح لنا شئ عن الخطيئة ، وعند تصفحنا للرسائل وجدنا حديثاً شاملاً عن الخطيئة فى رسالة بولس إلى أهل رومية (الأصحاح ٤ : ٧) .

وأول ما يلفت النظر عن حديث الخطيئة هنا أنه مخالف لنظرة الأناجيل التى ذكرنا أمثلة لها ، ذلك أنه فى كل هذه الأصحاحات التى أشرنا إليها تبدأ من افتراض لا يستند إلى دليل من العقل أو النقل ، فليس هناك نص واحد فى الأناجيل يؤيد ما جاء فى مقولة هذه الرسالة .

وقد يُردّ علينا بأن هذه الرسالة وحدها تكفى ولا داعى مطلقاً لنص آخر ، وهذا الرد وإن كان يبدو مقبولاً من وجهة نظر مسيحية إلا أنه لا يمكن أن يقبل منطقياً ، وذلك أن أية رسالة وحدة واحدة ، ولا يمكن أن تظهر فكرة ما فى سياق الكتاب دون أن يكون السياق مؤيداً لها ودالاً عليها ، ومصرحاً بها فى أكثر من مكان .. فالإنجيل بعهديه القديم والجديد يناهز الألف والخمسمائة صفحة أو يزيد .. ومع ذلك فالحديث عن الخطيئة فى الرسالة التى أشرنا إليها تبدو نشاراً لا يتسق مع كافة أجزاء الكتاب . أضف إلى ذلك أن الكتابة عن الخطيئة فى الرسالة أقرب إلى الفلسفة . والجدل الفلسفى منها إلى الكتابة الروحية .

وأيضاً نجد - عند الموازنة - الاختلاف البين فى تناول الإنجيل لمسألة الخطيئة عنها فى تناول الرسالة . فالطريقة مختلفة بل تكاد تكون متناقضة .

* ففى الوقت الذى تتحدث فيه الأناجيل عن الخطايا التى تكون فى سلوك الناس وأعمالهم - والتى هى مناط الجزاء لأنها من كسبهم ، وهم مسئولون عنها - إذا

بالرسائل تتحدث عن خطيئة لا دخل للناس فيها خطيئة أبدية .. انتشرت في الناس بسبب الخطيئة الأولى ، ثم ينسب بولس على ذلك آراءه في الصُّلب والتكفير .. وكلها أمور لا تخص البشر في شيء ، لأنهم لم يرتكبوا الخطيئة التي دخل الموت عليهم بسببها .. ولا يدرون كيف تخلصوا بالصُّلب من هذه الخطيئة .

ولنترك التعليق حتى نتناول نظرة هذه الرسالة « رسالة بولس إلى أهل رومية » إلى الخطيئة .

* في الأصحاح الأول يعلن أن الشر انتشر بين الناس : « لأنهم لما عرفوا الله لم يمجّدوه أو يشكروه كإله بل حسموا في أفكارهم وأظلم قلوبهم الغبيّة ، وبينما هم يزعمون أنهم حكماء صاروا جهلاء ، وأبدلوا مجد الله الذي لا يفنى بشبه صورة الإنسان الذي يفنى والطبوع والدواب والزخافات . لذلك أسلمهم الله أيضاً في شهوات قلوبهم إلى النجاسة لإهانة أجسادهم بين ذواتهم ... وكما لم يستحسنوا أن يبقوا الله في معرفتهم أسلمهم الله إلى ذهن مرفوض ليفعلوا ما لا يليق ... (وعدّد بعض الخطايا البشرية) ... الذين إذ عرفوا حكم الله أن الذين يعملون مثل هذه يستوجبون الموت ، لا يفعلونها... »^(١)

ونود أن نشير إلى بعض الملاحظات أمام القارئ قبل أن نمضي في استعراض باقى الإصحاحات :

١ - إن الأصحاح لا يشير من بعيد أو قريب إلى تلك الخطيئة الأبدية بل يشير إلى خطأ بشريّ استشرى في أوقات لاحقة عندما عبد الناس الأصنام وفعلوا الفاحشة ، وهنا لا نجد تلك الخطيئة الأولى التي شاع الحديث عنها .

٢ - يشير الأصحاح إلى جزاء مثل هذه الخطايا وهو الموت ، وهذا الجزاء غير وارد عن مثل هذه الخطايا ، وهذه الإشارة تعنى أن الموت ليس جزاء الخطيئة بصفة عامة أو الخطيئة الأولى بصفة خاصة ، لأن التعبير هنا أقرب إلى التصوير والخيال منه إلى الحقيقة والواقع ، ومفاد هذا أن ما جاء عن الموت الأبدى أريد به التخويف والإنذار لا أكثر .

* وفي الأصحاح الثانى نجد الحديث عن التوبة : « أم تستهين بغنى لطفه وإمهاله

(١) ندعو القارئ الكريم أن يقرأ الإصحاح الأول كاملاً حتى يستطيع أن يصل إلى ما وصلنا إليه بنفسه .. وربما إلى أكثر مما وصلنا إليه .

وطول أناته غير عالم أن لطف الله إنما يقتادك إلى التوبة ، ولكنك من أجل قساوتك وقلبك غير التائب تدخر لنفسك غضباً في يوم الغضب ... » .

ثم يتحدث الإصحاح عن أصحاب الناموس : « لأن ليس الذين يسمعون الناموس هم أبرار عند الله ، بل الذين يعملون بالناموس هم يبررون لأن الأمم الذين ليس عندهم الناموس متى فعلوا بالطبيعة ما هو في الناموس فهؤلاء إذ ليس لهم الناموس هم ناموس لأنفسهم الذين يظهرون عمل الناموس مكتوباً في قلوبهم شاهداً أيضاً ضميرهم وأفكارهم فيما بينها مشتكية أو محتجة في اليوم الذي فيه يدين الله سرائر الناس حسب إنجيلي يسوع المسيح » .

وملاحظتنا على هذه الفقرة

- ١ - يظهر في البداية مدى الدعوة إلى التوبة .
- ٢ - عقب ذلك مباشرة بأن القلب غير مستعد لهذه التوبة لقساوته ، ولهذا فهو يستجلب الغضب .

وإن كان الحديث في هاتين النقطتين عن شخص بعينه أو عدة أشخاص فلا تناقض ، إذ يمكن أن نحكم على شخص أو أشخاص بأنهم قساة القلوب ، اعتماداً على سلوكهم وأعمالهم ، أما إذا كان الحديث يتناول النوع الإنساني كله فيكون التناقض بين العبارتين واضحاً ، فمما لاشك فيه أن أناساً استجابوا لله تعالى وأقلعوا عن ذنوبهم وتابوا ، فتعميم الحكم بقسوة القلوب واستجلاب الغضب لا يصح بحال .

- ٣ - في عبارات الإصحاح بعد ذلك محاولة للتهوين من شأن الناموس (الوحي والرسالة والشرعة) ، فقد يتساوى الذين لا ناموس لهم مع أصحاب الناموس ، إذ يمكن أن يكونوا كذلك حين يصلون بعقولهم أو قلوبهم إلى القانون ، الذي يشابه الناموس .

وهذه قضية فلسفية ناقشها ابن طفيل في قصة « حي بن يقظان »^(١) فهل يمكن أن يستغنى البشر عن الرسالة الإلهية ؟ وهل يمكن أن يصل بعقله إلى الإيمان الحق ، هذه القضية قديمة جداً ، ولعل كاتب الرسالة التي ناقشها قد تأثر فيها بفلسفة أفلوطين أو غيره من الفلاسفة .

(١) وكذلك ابن سينا .

٤ - تأمل قول بولس : « هم ناموس لأنفسهم » وما فيه من تحلل من قيم الشريعة .

٥ - « يدين الله سرائر الناس حسب إنجيلي » .

وهنا تساؤل مُحير .. إذ كيف يُدانُ الناس حسب إنجيل بولس ؟ ولمَ حاول أن يَشُدَّ الناس إليه ؟ وكيف قطع الطريق أمام غيره .. بل ولماذا حاول بولس التحديد ؟

إن له دلالة قوية ، ربما يدلُّ تحديد بولس على مدى الصراع الدائر في العصور الأولى ، وبولس لم يشاهد المسيح عليه السلام ، وكان الرسل متخوفين منه لولا برنابا ، بل إن برنابا نفسه انشق على بولس وخرج عليه وهو الذي سبق أن قدمه للتلاميذ ^(١) ، فما دلالة كل ذلك ؟

إنه يدل على مدى ما يتعرض له بولس من صراع غير متكافئ ، فكان لابد أن يربط أهل رومية بإنجيله لعلهم يكونون سنداً له في صراعه ، ولهذا كله وغيره ربط بولس الديونة بإنجيله دون سواه .

٦ - وفي نهاية الأصحاح نكتشف حقيقة خطيرة تؤكد ما توصلنا إليه في بداية ملاحظتنا من محاولات للتهوين من شأن الناموس « لأن اليهودى فى الظاهر ليس هو يهودياً ، ولا الختان الذى فى الظاهر فى اللحم ختانياً ، بل اليهودى فى الخفاء هو اليهودى . وختان القلب بالروح لا بالكتاب هو الختان الذى مدحه ليس من الناس بل من الله » .

ويُحاول بولس فى كل ذلك أن يجعل من شعائر الناموس عبثاً ، ويركز على الباطن .. مما يوحي بأن الشعائر لا يمكن أن تجتمع مع الإيمان القلبي ، وإلا فكيف يصرف بولس جلَّ همّه إلى الحديث عن ذلك ، وهو ما بدأ به الأصحاح الثالث أيضاً ؟

* وفى الأصحاح الثالث :

« فإنه إن كان صدق الله قد ازداد بكذبى لمجده فلماذا أَدانُ أنا بعدُ كخاطي ؟ » .

« الجميع زاغوا وفسدوا معاً .. ليس مَنْ يعمل صلاحاً ليس ولا واحد ... وفهمهم مملوء لعنة ومرارة ... لأنه بأعمال الناموس كلُّ ذى جسد لا يتبرر أمامه لأن بالناموس معرفة الخطية » .

(١) راجع : الاختلاف والاتفاق بين إنجيل برنابا والأنجيل الأربعة ، نشر دار البشير - القاهرة .

« وأما الآن فقد ظهر برّ الله بدون التاموس مشهوداً له من التاموس والأنبياء ... متبررين مجاناً بنعمته بالفداء الذى يسوع المسيح . الذى قدّمه الله كفارة بالإيمان بدمه لإظهار برّه من أجل الصفح عن الخطايا السالفة بإمهال الله » .

وفى هذه العبارات أكثر من ملاحظة هامة ..

١ - الكذب ليرداد صدق الله .. ولا ندرى السرّ الذى يجعل صدق الله يزداد بكذب الإنسان ؟ .. ولعل بولس هنا يأخذ لنفسه الإذن بأن يقول ما شاء ، مهما كان كذباً لأنه يزيد بكذبه صدق الله فلا حرج عليه .

٢ - اتّهام الجميع بأنهم زاغوا وفسدوا .. ليس منّ يعمل صلاحاً ليس ولا واحد .

٣ - إن التاموس لا يضمن طهارة أحد .. لأن التاموس هو الذى كشف الخطايا .. ولا شأن له بعلاجها .

٤ - ظهر برّ الله بدون التاموس فلم يعدّ للتاموس فائدة وهذا ليس عجيباً ، لأن التاموس نفسه اعترف بذلك .

٥ - قدّم الدم كفارة للخطايا السالفة بإمهال الله ، ولا ندرى هل تكفير لأهل هذا الزمان الذى قدّم الدم فى وقتهم ؟ أم للسابقين .. أم للمتأخرين ؟ وإن كانت للمتأخرين فما هى الخطايا السالفة بالنسبة لهم وهم لم يولدوا بعد ؟

ولقد استعرضت هذه النصوص لأدلل على فكرة وضّحتها فى حديثى وهى أن التصور المسيحى للخطيئة^(١) والخلاص منها لا يستند على أساس واضح من النصوص القاطعة خصوصاً فى أمر كهذا ، نظراً لأن المسيحية قد اختلفت مع غيرها من الديانات السماوية فى هذا التصور ، وكان لا بد أن يستند هذا إلى نصوص قوية .

أما والأمر كما رأينا فإن الخطيئة وما زعموا حولها من الموت الأبدى ليس إلا تصورات نابعة من ضمائر بعض الناس أو قلّ إنها نابعة من أوهامهم .. والله أعلم .

ثالثاً : الخطيئة فى تصور الإنجيل برنابا

لعل من المفيد أن نشير إلى مفهوم الخطيئة فى إنجيل برنابا ، وذلك لتمييزه الواضح عن باقى الأناجيل ، وهذا الإنجيل قد كتبه صاحبه للرد على المنحرفين عن الطريق القويم

(١) تقصد الخطيئة بمعناها الخاص فى المسيحية والتى زعموا أن دم المسيح كان فداءً وخلصاً منها .

للمسيح عليه السلام .. ولهذا فلا عجب أن يأتي مفهوم الخطيئة فيه متسقاً مع مفهوم الخطيئة في الرسائل بصفة عامة .

ولهذا فإنه قد يكون مرفوضاً من جانب المسيحيين ، ولكنه مقبول من وجهة نظر الرسائل السماوية عموماً . ومتسقاً مع منطق المسئولية الفردية ، وفكرة الثواب والعقاب . وهي المبدأ الأخلاقي الذي تقوم عليه الديانات جميعها .. فليس من السهل - والأمر كذلك - أن نتجاوز إنجيل برنابا دون الإشارة إلى مفهوم الخطيئة فيه .

* جاء في الفصل الثالث والثلاثين : « ما أعظم هذه الخطيئة .. قال الله مخاطباً إسرائيل : لا تصنع لك تمثالاً ممّاً في السماء ولا ممّاً تحت السماء .. إني أنا إلهك قوى وغيور ينتقم لهذه الخطيئة من الآباء وأبنائهم .. حتى الجيل الرابع » .
فالخطيئة الكبرى هي اتّخاذ آلهة من دون الله .

* ويترتب على هذا القول قول آخر : « ليكن ملعوناً كُلُّ مَنْ يَدْرَجُ فِي أَقْوَالي أُنِي ابن الله ^(١) » ، فسقط التلاميذ عند هذه الكلمات كأموات .. فأنهضهم يسوع قائلاً : لنخف الله الآن إذا أردنا أن لا نُرَاعَ في ذلك اليوم » يقصد يوم القيامة بأهواله .

* وعن مغفرة الخطايا : « لا تخف أيها الأخ لِأَن خطاياك قد غُفِرَتْ لَكَ » ، فاستاء كل أحد لسماع هذا وقالوا : « مَنْ هَذَا الَّذِي يَغْفِرُ الْخَطَايَا » فقال حينئذ يسوع : « لعمر الله إني لست بقادر على غفران الخطايا ولا أحد آخر .. ولكن الله وحده يغفر ، ولكنني كخادم لله أقدر أن أتوسل إليه لأجل خطايا الآخرين » ^(٢) .

* ويعاود إنجيل برنابا الحديث عن فتنة البُتُوَّة فأخبر المسيح « ولكن عندما يأخذني الله من العالم سيثير الشيطان مرة أخرى هذه الفتنة الملعونة بأن يحمل عادم التقوى على الاعتقاد بأني الله وابن الله ، فيتنجس بسبب هذا كلامي وتعليمي حتى لا يكاد يبقى ثلاثون مؤمناً ... » .

* وعلمهم المسيح طريق التوبة فيقول المصلّي في صلاته : « انظر يا رب إلى الأثيم الذي أغضبك بدون أدنى سبب ، في الوقت الذي كان يجب عليه أن يخدمك فيه ...

(١) أشار القرآن الكريم إلى إحساس عيسى عليه السلام بكفرهم فقال تعالى : « فَلَمَّا احْصَى مِنْهُمْ الْكَفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ... » (آل عمران : ٥٢) .

(٢) هذا أقرب إلى مفهوم الشفاعة للعصاة .

فإذا جرى الخاطئ على هذا الأسلوب وجد أن رحمة الله تزيد على نسبة العدل الذى يطلبه » (فصل : ١٠٢)

* وفى (الفصل : ١٠٣) يستمر الحديث الشيق عن التوبة « إن بكاء الخاطئ يجب أن يكون كبكاء أب على ابن مشرف على الموت ، ما أعظم جنون الإنسان الذى يبكى على الجسد الذى فارقتة النفس ولا يبكى على النفس التى فارقتها رحمة الله بسبب الخطيئة ^(١) ، قولوا لى إذا قدر النوتى الذى كسرت العاصفة سفينته على أن يسترد بالبكاء ما خسر فماذا يفعل ؟ » .

ولا نطيل فى استعراض عبارات الخطيئة وعلاجها فلن نظفر فى إنجيل برنابا إلا بهذا الخط الواضح ، وليرجع إليه من أراد المزيد .. والله أعلم .

من تعليقات الباحثين حول الخطيئة فى المسيحية

تثور تساؤلات كثيرة من الباحثين حول الخطيئة فى المفهوم المسيحى - وكيفية الخلاص منها ، ونسوق هنا بعض هذه التساؤلات ؛ والهدف لفت النظر إلى الصواب ، والتنبيه إلى الصراط المستقيم حتى يعمل كل ذى عقل وعقله ، ويختار لنفسه .

يقول أحد الباحثين ^(٢) : ولست أدرى ما الذى حدا بالمسيحيين أن يصوروا نبيهم ، أو هذا التصوير البشع وإن أى مفكر لتخطر بنفسه الأسئلة الآتية :

١ - ادعى المسيحيون أن صلب المسيح كان لتحقيق العدل والرحمة ، وأى عدل وأى رحمة فى تعذيب غير مذنب وصلبه ؟ قد يقولون إنه هو الذى قبل ذلك ^(٣) ، ونقول لهم : إن من يقطع يده ، أو يعذب بدنه ، أو ينتحر ، مذنب ولو كان يريد ذلك !!

٢ - إذا كان المسيح ابن الله فأين كانت عاطفة الأبوة ؟ وأين كانت الرحمة حينما كان الابن الوحيد يلقى دون ذنب ألوان التعذيب والسخرية ثم الصلب مع دق المسامير فى يديه ؟

(١) مفهوم الخطيئة هنا هو المفهوم العام لها بمعنى الخطأ فى السلوك وليست بالمفهوم المسيحى .

(٢) د. أحمد شلبى فى كتاب : المسيحية ، من سلسلة مقارنة الأديان ، ص ١٥٨ وما بعدها .

(٣) هذا زعم لا تؤيده نصوص الإنجيل ، وهى تجمع على أنه كان مكتئباً حزناً يتضرع إلى الله تعالى أن يعبر عنه هذه اللحظات ويخلصه من كيد الكائدين .

٣ - ما هي صورة المسيحيين عن الله (جلّ في سماء) الذي لا يرضى إلا بأن يُنزل العذاب المهين بالناس ؟ والعهد في الله الذي يسمونه الأب ويطلقون عليه (الله رحمة) أن يكون واسع المغفرة كثير الرحمات ؟

٤ - مَنْ هذا الذي قيّد الله (جلّ جلاله) وجعل عليه أن يلزم العدل وأن يلزم الرحمة وأن يبحث عن طريق للتوفيق بينهما ؟

٥ - ويدّعى المسيحيون أن ذرية آدم لزمهم العقاب بسبب خطيئة أبيهم وفي أي شرع يلتزم الأحفاد بأخطاء الأجداد ؟ وبخاصة أن الكتاب المقدس ينص على أنه لا يقتل الآباء عن الأولاد ولا يُقتل الأولاد عن الآباء . كل إنسان بخطيئته يقتل .

(تثنية ٢٤ : ١٦)

٦ - وإذا كان صلّب المسيح عملاً تمثيلياً على هذا الوضع فلماذا يكره المسيحيون اليهود ويرونهم آثمين معتدين على السيد المسيح ؟ .

٧ - وهل كان نزول ابن الله وصلبه للتكفير عن خطيئة البشر ضرورياً ؟؟ وكانت هناك وسائل أخرى من الممكن أن يغفر الله بها خطيئة البشر ؟

* والجواب عن ذلك يقدمه كاتب مسيحي هو (القس بولس سباط) بقوله :

لم يكن تجسد الكلمة ضرورياً لإنقاذ البشر ، ولا يتصور ذلك مع القدرة الإلهية الفائقة الطبيعية .. ثم يسترسل الكاتب مبيناً السبب فيقول :

« إن الله على وفرة ما له من الذرائع إلى فداء النوع البشري وإنقاذه من الهلاك الذي نتج من الخطيئة ومعصية أمره الإلهي قد شاء سبحانه أن يكون الفداء بأعز ما لديه لما فيه من القوة على تحقيق الغرض وبلوغه سريعاً » .

ونصرخ في وجه هذا الكاتب أنه ليس من الحكمة في أي شيء أن نفتدى بدنيار ما نستطيع أن نفتديه بفلس ، تعالى الله عن ذلك .

وإجابة أخرى عن هذا السؤال نقتبسها من كاتب مسيحي آخر هو الأب (بولس إلياس) يقول : « مما لا ريب فيه أن المسيح كان باستطاعته أن يفتدى البشر ، ويصالحهم مع أبيه بكلمة واحدة ، أو بفعل سجود بسيط يؤديه باسم البشرية جمعاء لأبيه السماوي ، لكنه أبى إلا أن يتألم ليس لأنه مريض يتعشق الألم ، ولا لأن أباه ظالم يطرب لمراى الدماء ، وأية دماء ؟ دماء ابنه الوحيد ، وما كان الله بسفاح ظلوم لكن الله الابن شاء مع

الله الأب أن يُعطي الناس أمثلة خالدة من المحبة تبقى على الدهر وتحركهم على الندامة على ما اقترفوه من آثام وتحملهم على مبادلة الله المحبة .

ومرة أخرى نصرخ مؤكداً أنه صَوْرُ الداء أدق تصوير عندما تكلم عن الدماء والقسوة ، ولكنه عندما بدأ يجيب ويصف الدواء تعثر وكبا ، ولم يقل إلا عبارات جوفاء لا تحمل أى معنى ^(١) .

٨ - ونعود إلى القس بولس سباط لنسأل كما سأل : إذا كانت الكلمة قد تجسدت نحو الخطيئة الأصلية فما العمل فى الخطايا التى تحدث بعد ذلك ؟ ويجيب الكاتب بما يلي بالحرف الواحد :

إذا عاد الناس إلى اجتراح الخطايا فالذنب ذنبهم لأنهم آنسوا النور وعشوا عنه مؤثرين الظلمة بإرادتهم .

ومعنى ذلك أن خطيئة واحدة محيت ، وأن ملايين الخطايا سواها بقيت وجدت بعد ذلك ، وسيحاسب الناس على ما اقترفوه . وبعض ما اقترفوه أقسى من عصيان آدم ؛ لقد أنكر بعض الناس وجود الله وهاجمه آخرون وسخروا بجنته وناره فلماذا كانت مظاهر التجسد لخطيئة واحدة وتركت خطايا لا تعد ؟

٩ - أين كان عدل الله ورحمته منذ حادثة آدم حتى صلب المسيح ؟ ومعنى هذا أن الله ظل (تعالى عن ذلك) حائراً بين العدل والرحمة آلاف السنين حتى قبل المسيح منذ حوالى ألفى عام أن يصلب للتكفير عن خطيئة آدم .

١٠ - ويلزم فى جميع الشرائع أن تناسب العقوبة الذنب فهل يتم التوازن بين صلب المسيح على هذا النحو وبين الخطيئة التى ارتكبها آدم ؟

١١ - هذا إلى أن خطيئة آدم التى لم تزد عن أن تكون أكلًا من شجرة نهي عنها وقد عاقبه الله عليها بإخراجه من الجنة ولاشك أنه عقاب كاف ، فالحرمان من الجنة الفينانة ، والخروج إلى الكدح . والنصب عقاب ليس بالهين ، وهذا العقاب قد اختاره الله بنفسه ، وكان يستطيع أن يفعل بآدم أكثر من ذلك ، ولكنه اكتفى بذلك ، فكيف يستساغ أن يظل مضمرًا سوء غاضبًا آلاف السنين حتى وقت صلب عيسى ؟

(١) أقول : ولا دلالة على ما ذهب إليه من نص شرعى أو منطقي عقلى ، ولو صح ما قاله ما سكنت الإنجيل عن ذلك .

١٢- وقد مرّت بالبشر من عهد آدم إلى عهد عيسى أحداثٌ وأحداثٌ ، وهلك كثيرون من الطغاة ، وبخاصة في عهد نوح حيث لم ينج إلا مَنْ آمن بنوح وأتبعه ويركب معه السفينة ، فهؤلاء هم الذين رضى الله عنهم ، فكيف بعد ذلك تبقى ضغينة وكرهية تحتاجان لأن يضحى عيسى بنفسه فداءً للبشرية ؟

١٣- والكاتب المسيحي الذي أسلم (عهد الأحد داود) ينتقد قصة التكفير هذه انتقاداً عقلياً سليماً فيقول :

إنّ من العجيب أن يعتقد المسيحيون أن هذا السر اللاهوتي وهو خطيئة آدم ، وغضبة الله على الجنس البشرى بسببها ظل مكتوماً عن كل الأنبياء السابقين ، ولم تكتشفه إلا الكنيسة بعد حادثة الصليب .

١٤- ويقول هذا الكاتب : إن مما حمّله على ترك المسيحية هو هذه المسألة وظهور بطلانها لأن الكنيسة أمرته بأوامر لم يستسغها عقله وهى :

- (أ) نوع البشر مذنب بصورة قطعية ويستحق الهلاك الأبدى .
- (ب) الله لا يخلص أحداً من هؤلاء المذنبين من النار الأبدية المستحقة عليهم بدون شفيح .

(جـ) والشفيع لابد أن يكون إلهاً تاماً وبشراً تاماً ، ويدخل هذا الكاتب فى نقاش طويل مع المسيحيين بسبب هذه الأوامر ؛ فهم يرون أن الشفيح لابد أن يكون مطهراً من خطيئة آدم ويرون أنه لذلك ولد عيسى من غير أب لينجو من انحدار الخطيئة إليه من أبيه ويسألهم الكاتب : ألم يأخذ عيسى نصيباً من الخطيئة عن طريق أمه مريم ؟ ويجيب هؤلاء بأن الله طهر مريم من الخطيئة قبل أن يدخل الله الابن رحمها .

ويعود الكاتب فيسأل إذا كان الله يستطيع هكذا فى سهولة ويسر أن يطهر بعض خلقه فلماذا لم يطهر خلقه من الخطيئة كذلك بمثل هذه السهولة وذلك اليسر ؟ بدون إنزال ابنه وبدون تمثيلية الولادة والصليب ؟

ونضيف إلى نقاش عهد الأحد داود أن قولهم بضرورة أن يكون الشفيح مطهراً من خطيئة آدم (مما استلزم أن يولد عيسى من غير أب وأن يطهر الله مريم قبل دخول عيسى رحمها) يحتاج إلى طريق طويل معقد ، وكان أيسر منه أن ينزل ابن الله مباشرة فى مظهر الإنسان دون أن يمر بطريق الرحم والولادة .

ويبقى في هذا الموضوع أن نسأل أسئلة أخيرة هي :

* هل كان الأنبياء جميعاً مُدُنِّسِينَ خُطَاةً بسبب خطيئة أبيهم آدم ؟

* وهل كان الله غاضباً عليهم أيضاً ؟

* وكيف اختارهم مع ذلك كهداة للبشر ؟

ونسوق نموذجاً آخر ^(١) لمناقشة فكرة الخطيئة في المسيحية وهي أن أساس عقيدة صلب الإله في المسيحية هو الرغبة في حل مشكلة التعارض بين صفتي العدل والرحمة، ولم يجد الله - سبحانه وتعالى - حلاً لهذه المشكلة إلا أن ينزل من السماء ويقدم نفسه للإنسان كفارة عن خطيئة آدم ، وذلك بأن يقتله الإنسان على الصليب ، أى أن الله ينتحر بأيدى الإنسان الخاطيء ويعفيه الله بذلك من إثم الخطيئة الأولى ، ولنا الملاحظات الآتية في مناقشة هذه العقيدة :

أولاً : أعطى الله تعالى الكثير من النعم للإنسان ، وقدر لكل إنسان رزقه ونصيبه من هذه النعم في غير عدل وغير ظلم ، إن الله يعطي لمن يشاء ما يشاء كيف يشاء بدون عدل وبدون ظلم ^(٢) . وأسماء الله الحسنى ليس بها صفة عادِل (٣) ، وكذلك في الإنجيل ذكر السيد المسيح مثلاً من أمثاله في إنجيل متى يوضح فيه هذا المعنى في الأصحاح العشرين وفيه صاحب كرم استأجر فعلةً يوماً ، وأعطى لبعضهم أكثر مما يستحقون من الأجرة ، فاحتج الآخرون فقال لهم : « أو ما يحل لى أن أفعل ما أريد بمالى » (٢٠ - ١٤) ، فلم يعدل صاحب الكرم بين الفعلة ولم يظلم أحداً منهم في نفس الوقت . اهـ بتصرف .

ثانياً : قال مجمع الإيمان ما معناه : إن الله لا يقدر أن يغفر ، لأن المغفرة تتعارض مع العدل ، فالعدل يقتضى معاقبة المخطئ والمغفرة معناها عدم معاقبة المخطئ ، وبذلك يقف العدل في طريق المغفرة ويلغى قدرة الله على المغفرة ، وهذا لا تقبله جميع الأديان .

(١) ملكوت الله في النصرانية واليهودية والإسلام ، تأليف عبد المجيد الجندى ، ص ١٢٣ وما بعدها .

(٢) يسوق الكاتب مثلاً - (والله المثل الأعلى) - بالفنى الذى أعطى أحد الفقراء عشرة جنيهاً وأعطى آخر جنيهاً وثالثاً خمسة جنيهاً ... إلخ ، فهو غير عادِل إذ لم يوزعها بالعدل وهو غير ظالم إذ لم يمنع عن أحدٍ حقه . فالتعم من الله تعالى هبة ليس فيها عدل ولا ظلم : ص ١٣٨ .

(٣) أقول : من أسمائه الحسنى « العدل » .

ثالثاً : الطريقة التى تمّ بها الفداء المزعوم تتنافى مع أبسط قواعد العدل والرحمة ، فقد اعتبروا عصيان آدم وأكله من الشجرة المحرمة جريمة فكان يجب - إذا كان لا مفر من العقوبة - أن يعاقب آدم نفسه لا ذريته التى لا ذنب لها ، وعدم تحميل الأبناء ذنوب الآباء قاعدة موجودة فى اليهودية والنصرانية والإسلام .

وحتى لو فرضنا أن على أبناء آدم أن يعاقبوا على جريمة أكل آدم من الشجرة المحرمة لا يكون ذلك بأن نجعلهم يرتكبون جريمة أكبر وأفظع ، وهى قتل الإله أو قتل ابن الإله أو قتل إنسان لم يرتكب أى ذنب فى حياته .

ولعلك أدركت من سوق هذه الملاحظات - وغيرها كثير - أن محاولة تبرير الصليب بأنه حلٌّ للتعارض بين العدل والرحمة فى ذات الله تعالى . محاولة للتدليس على العامة حيث تلبس الحق بالباطل .

فما هذا الإله الذى تتعارض صفاته بعضها مع بعض ؟ وهل يصلح مثل هذا الكائن أن يكون إلهاً ؟ ولو صحّ أن الصليب محاولة لإزالة التناقض فى صفات الإله المزعوم لوجب أن يحل التناقض بما لا يخلق تعارضاً آخر أشد منه ، فليس من العدل أن يعاقب غير المذنب ، وليس من العدل أن تفوق العقوبة الذنب ، وليس من العدل - كذلك - أن يصلب واحد من أجل خطيئة واحدة .. ثم تترك . بقية الخطايا - رغم بشاعتها - دون أن يصلب آخرون لأجلها .. نعم كل ذلك ليس من العدل وكل ذلك أيضاً ليس من الرحمة فى شيء .

ويظهر لك كذلك أن ما ساقه النصارى تبريراً لرواية الصليب لا يعدو مجرد افتراضات ترضى قائلها وتزين لهم سبل الشيطان ، وهى لا تستند لدليل عقلى أو نقلى .

﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى ﴾ (النجم : ٢٣)

مفهوم الخلاص الحقيقى فى المسيحية

عرضنا لوجهة نظر المسيحيين فى الخطيئة والخلاص ، ورأينا كيف خانهم التوفيق فى القول بالصليب والتكفير عن الخطيئة ، ورأينا كيف أن هذا القول يتصادم مع العقل والإيمان ، وقلنا إنه باستعراضنا للأناجيل لم نعثر على عبارة صريحة الدلالة توضح أن هناك خطيئة عامة لا يكفرها إلا الدم ، وكل ما ورد فى هذا الموضوع لا يقطع فيه برأى ،

وإنما هو مثار للتأويل ، وربما يكون حمله على غير ما أرادوه أولى من حمله على ما حملوه ^(١) .

والذى يستعرض عبارات الإنجيل يستطيع أن يجد الطريق إلى الخلاص الحقيقي بعيداً عن التجسد والصلب ، إذ لا داعى للقول بهما فقد ضمن الإنجيل الخلاص بطريق يتفق مع كافة الشرائع السماوية ، ومع المنطق الذى جرت به الرسالات ، ويتفق مع العقل البشرى ، فلا يقدم له طلاسّم وألغازاً ، ولا يطلب من الإنسان أن يسير معصوب العينين . ومن الأمثلة التى ذكّرت فى العهد الجديد :

* بينما كان المسيح يسير خارجاً : إذا واحد تقدّم وقال له : أيها المعلم الصالح أى صلاح أعمل لتكون لى الحياة الأبدية . فقال له : لماذا تدعونى صالحاً ، ليس أحد صالحاً إلا واحد وهو الله ، ولكن إن أردت أن تدخل الحياة فاحفظ الوصايا ، قال له : أية وصايا ؟ فقال يسوع : لا تقتل ، لا تزن ، لا تسرق ، لا تشهد بالزور ، أكرم أباك وأمك ، وأحب قريبك كنفسك . قال له الشاب : هذه كلها حفظتها منذ حدثت فماذا يعوزنى بعد ذلك ؟ قال له يسوع : إن أردت أن تكون كاملاً فاهذب وبع أملاكك وأعط الفقراء فيكون لك كنز فى السماء وتعالى اتبعنى ... (متى ١٩ : ١٦ - ٢١)

فلم يطلب المسيح عليه السلام من سائله إلا أن يؤمن بالله الواحد ، وهو الصالح ، كما طلب منه أن يحفظ الشريعة والوصايا ويتخلص من أعراض الحياة والتعلق بها ، وأن يتبع الرسالة والرسول .

* وفى يوم القيامة (يوم الدينونة) سيكون الخلاص بالعمل الصالح لا بالصلب ، وفلسفاته التى تناقض العقل ، وهذا كلام تنطق به عبارات الإنجيل : « يقول الملك للذين عن يمينه : تعالوا لثروا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم ؛ لأننى جعت فأطعمتمونى ، كنت غريباً فأورثتمونى ، عرياناً فكسوتمونى ، مريضاً فزرتمونى ، محبوساً فأتيتم إلى » .

فيجيبه الأبرار حينئذ قائلين : يا رب متى رأيناك جائعاً فأطعمناك ، أو عطشاناً فسقيناك ، ومتى رأيناك غريباً فأورثناك ، أو عرياناً فكسوناك ، ومتى رأيناك مريضاً أو محبوساً فأتينا إليك . فيجيب الملك ويقول لهم : الحق أقول لكم بما أنكم فعلتموه بأحد أحدى الأصاغر فى

(١) انظر فى ذلك تفصيلاً : المسيح فى مصادر العقائد المسيحية ، مهندس أحمد عبد الوهاب ، ص ٢٧٦ وما بعدها .

فعلتم ، ثم يقول أيضاً للذين عن اليسار : اذهبوا عنى يا ملاعين إلى النار الأبدية المعدة لإبليس وملائكته ، لأنى جعت فلم تطعمونى ... حيثئذ يجيئونه هم أيضاً قائلين : يا رب متى رأيناك جائعاً .. فيجيبهم قائلاً : الحق أقول لكم بما أنكم لم تفعلوه بأحد هؤلاء الأصاغر فبى لم تفعلوا ، فيمضى هؤلاء إلى عذاب أبدي ، والأبواب إلى حياة أبدية .

(متى ٢٥ : ٣٤ - ٤٦)

وهكذا نرى أن الإنسان يُدانُ بعمله ، ويتحمل مسؤوليته ومدى اتباعه لتعاليم الله سبحانه وتعالى .. ولا دخل للصُّلب أو الفداء بذلك .

وقد جاء فى سفر حزقيال : « الابن لا يحمل من إثم الأب ، والأب لا يحمل من إثم الابن .. بر البار عليه يكون ، وشر الشرير عليه يكون »

(١٨ : ٢٠)

« أنت تؤمن أن الله واحد .. حسناً تفعل .. والشرطيّين يؤمنون ويقشعرون ، ولكن هل تريد أن تعلم أيها الإنسان الباطل أن الإيمان بدون أعمال ميت .. بالأعمال يتبرر الإنسان لا بالإيمان وحده »

(٢ : ١٩ - ٢٤)

إن الديانة الطاهرة النقية عند الله هى هذه :

افتقاد اليتمامى والأرامل فى ضيقتهم وحفظ الإنسان نفسه بلا دنس من العالم .

(٢ : ٢٧)

* وتأمّل معى أيها القارئ حديث الأناجيل عن الخطايا التى تُغفر ، وعن الخطيئة التى لن تُغفر . فى متّى (١٢ : ٣١ - ٣٧) : « لذلك أقول لكم - والكلام للمسيح - كل خطية وتجديف يغفر للناس ، ومن قال كلمة على ابن الإنسان يغفر له ، وأما من قال على الروح القدس فلن يغفر له لا فى هذا العالم ولا فى الآتى ، اجعلوا الشجرة جيّدة وثمرها جيّداً ، أو اجعلوا الشجرة رديّة وثمرها رديّاً ، لأن من الثمر تعرف الشجرة . يا أولاد الأفاعى كيف تقدرون أن تتكلّموا بالصالحات وأنتم أشرار ؟ أقول لكم إن كلمة بطالة يتكلم بها الناس سوف يعطون عنها حساباً يوم الدين ، لأنك بكلامك تبرّر ، وبكلامك تدان ... »

وهذا الكلام واضح الدلالة ، ونستطيع أن نستنبط منه ما يأتى :

إنه يُحذّره أن يجذّفوا على الروح القدس ، لأن التجديف عليه لن يغفر أبداً ^(١)

(١) يذكرنا هذا بقول الله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونِ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » (النساء : ٤٨) .

ويوضح مرقس هذه القضية أكثر فيقول : « الحق أقول لكم : إن جميع الخطايا تُغفر لبني البشر والتجديف التي يجدفونها ، ولكن من جدف على الروح القدس فليس له مغفرة إلى الأبد ، بل هو مستوجب دينونة أبدية ، لأنهم قالوا إن معه روحاً نجسة ... » (١) .

فهنا يضرب لنا مثالا على نوعية التجديف على الروح القدس كأن يضيفوا الوحي الذي ينزل على الرسول إلى الشيطان ، ويجعلوه عملاً من أعمال الروح النجس ، لا الروح القدس ، ولعله هنا جبريل عليه السلام .

ومما يدل على أن المسيح عبد لله ورسول من عنده تعالى أننا نخبرهم أن كل كلمة تقال على ابن الإنسان تغفر ، اللهم إلا إذا تناول الناس على مرتبة الألوهية والوحي ، (والمسيح هو ابن الإنسان) .

ويحكى لنا لوقا (١٧ : ١ - ٣) كلام المسيح عن الخطيئة والتحذير منها ووجوب العفو عن الإخوة : « وقال لتلاميذه لا يمكن إلا أن تأتي العثرات ، ولكن ويل للذي تأتي بواسطته ، خير له لو طوق عنقه بحجر رحى وطرح في البحر من أن يعثر أحد هؤلاء الصغار . احترزوا لأنفسكم ... » .

فالخطيئة ضرورة .. فطرة رُكبت في طبيعة البشر ، وهو يحذرهم أن يكونوا سبباً في نشر الرذيلة ثم يطلب المسيح من كل منهم أن يحترس لنفسه ، فالإنسان هو المسئول عما يقترف ، ولن يتحمل أحد شيئاً من أوزار الآخرين (٢) .

وهكذا تنجلي بعض جوانب الصورة :

* فالكل مُحاسبٌ على ما تقترف يداه .

* لن يتحمل أحد وزر أخيه .

* هناك الخطيئة الكبرى التي لن تُغفر (وهي الشرك بالله) وأما غيرها فيمكن أن يُغفر ... وفضل الله واسع .

(١) والروح النجسة معناها أن تجعل لله شريكاً سبحانه وتعالى عن اتخاذ الشريك والولد .

(٢) ما ورد في لوقا من كلام المسيح عليه السلام « ويل للذي تأتي بواسطته » يذكرني بالخبر الذي روى عن رسول الله ﷺ وجاء فيه : « إن الله قدر الخير والشر ولكن طوبى لمن جعل الله الخير على يديه وويل لمن جعل الشر على يديه » .

* كل إنسان بكلامه يتبرر ، وبكلامه يُدان .

* تُغفرُ الخطايا بالعمل الصالح ومساعدة اليتامى والأرامل ، ولا علاقة لكل ذلك بما قيل عن الخطيئة الربائية التي اجتاحت البشرية ، أو الصُّلب تكفيراً عن هذه الخطيئة في غير أوانها .. وبعبداً عن طبيعتها ... والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

أين الحقيقة ؟

هل توارث البشر حقاً خطيئة ما بمجرد أن أكل أبوهم آدم من الشجرة ؟ لقد ظهر لنا بما أسلفناه أنه لا أساس للإدعاء بخطيئة متوارثة .. والآن وقد طال بنا البحث نقلّب صفحات العهد القديم الذى يؤمن به القوم لنرى ماذا نقول عباراته ؟

ففى الأصحاحات الأولى من سفر التكوين نجد الحديث عن خلق آدم وحواء ، ونجد أن آدم سمّاها امرأة لأنها من (المرء) أى من نفسه وتحدث عبارات الأصحاح الثالث عن خديعة الحية للمرأة : « فقالت المرأة للحية من ثمر شجر الجنة نأكل . وأما ثمر الشجرة التى فى وسط الجنة فقال الله لا تأكلوا منه ولا تمسّاه لئلا تموتا ، فقالت الحية للمرأة لن تموتا ، بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر » (٢ - ٦)

وفى نفس الأصحاح نقراً : « وقال الرب الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً الخير والشر ، والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل ويحيا إلى الأبد » . (٢٢ - ٢٣)

والشجرة التى أكل منها آدم وحواء شجرة معرفة الخير والشر . فهل هذه خطيئة ؟ إننا لا نجد هنا شبهة فى أى خطيئة بل ولا نجد شبهة مخالفة لأى أمر إلهى .. فقد أمر آدم بعدم الأكل من الشجرة .

أولاً : فآدم كان جاهلاً جهلاً فظرياً - حسب رواية العهد القديم - بحيث لم يكن يدرى (هو وحواء) أنهما عريانان ، ولك أن تتخيل المنظر إذا مررت على أية دابة من دواب الأرض ووجدت الذكر والأنثى من هذه الدواب (البهائم) يقفان متجاورين ، وقد ظهرت عوراتهما جميعاً دون نحجل لأنها لا تعرف ولا تدرك .

وَمَنْ كَانَتْ هَذِهِ حَالُهُ ، لَا يُؤْمَرُ وَلَا يُنْهَى ، فَإِذَا كَانَتْ الدَّابَّةُ فِي الْحَقْلِ وَاقِفَةً وَقِيلَ لَهَا كُلِّي مِنْ هَذَا النَّبَاتِ دُونَ هَذَا فَإِنَّ هَذَا الْأَمْرَ بَاطِلٌ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَصَادَفْ مَحَلَّهُ فَإِذَا أَكَلَتْ الدَّابَّةُ مِنْ كُلِّ نَبَاتٍ وَصَلَتْ إِلَيْهِ كَانَ الْخَطَأُ خَطَأً مِنْ أَمْرٍ وَنَهَاهَا .

فَإِذَا كَانَ آدَمُ لَا يَعْرِفُ (وَهَذَا مَا تَقُولُهُ عِبَارَاتُ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ) فَإِنَّهُ لَا يُكَلَّفُ ، وَإِذَا كُتِّفَ فَتُكَلِّفُهُ كَعَدَمِهِ .

وَهَكَذَا نَرَى أَنَّ الْخَطِيئَةَ غَيْرَ مَوْجُودَةٍ فِي حَقِّ آدَمَ ، وَالْجَاهِلُ إِذَا أَخْطَأَ فَهُوَ مَعْذُورٌ مَا دَامَتْ لَمْ تَتَوَافَرَ لَهُ سَبِيلُ الْمَعْرِفَةِ وَوَسَائِلُهَا ، أَمَّا إِذَا تَوَافَرَتْ لَهُ وَسَائِلُ الْمَعْرِفَةِ ثُمَّ قَصُرَ فِي أَنْ يَنَالِ هَذِهِ الْمَعْرِفَةَ فَإِنَّهُ لَيْسَ بِمَعْذُورٍ إِذَا أَخْطَأَ ^(١) .

وَأَدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي هَذِهِ الرِّوَايَةِ لَمْ يَقْصُرْ فِي تَحْصِيلِ الْمَعْرِفَةِ حَتَّى يُؤَاخِذَ بَلْ لَمْ تَنْشَأْ لَدَيْهِ غَرِيزَةُ الْمَعْرِفَةِ أَوْ فُطْرَتُهَا إِلَّا بَعْدَ أَنْ أَكَلَ مِنَ الشَّجَرَةِ ، وَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ يَجِبُ أَنْ يَثَابَ آدَمُ لَا أَنْ يُعَاقَبَ بِالطَّرْدِ أَوْ يُعَاقَبَ بِتَلَوُّثِ فِي الدَّمِ يَتَوَارَثُهُ أَبْنَاؤُهُ ، وَكَأَنَّ شَجَرَةَ الْمَعْرِفَةِ مَرَضٌ أَوْ وَبَاءٌ .

ثَانِيًا : وَإِذَا صَحَّ أَنَّ شَجَرَةَ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ قَدْ أَصَابَتْ آدَمَ بِالْخَطِيئَةِ الْمَلْعُونَةِ فَهَلْ جَاءَ الصَّلْبُ لِيُخَلِّصَ الْإِنْسَانَ مِمَّا أَصَابَهُ ، وَيُعِيدَهُ إِلَى الْبَلَاةِ الْحَيَوَانِيَّةِ الَّتِي لَا تَشْعُرُ بِالْعُرَى وَلَا تُخْجَلُ مِنَ الْعُورَةِ ؟

ثَالِثًا : وَإِذَا صَحَّ أَنَّ الْحَيَّةَ (أَوِ الشَّيْطَانَ أَوْ هُمَا مَعًا) قَدْ دَلَّا آدَمَ عَلَى شَجَرَةِ الْمَعْرِفَةِ الَّتِي مَنَعَهُ اللَّهُ عَنْهَا فَمَا مَعْنَى ذَلِكَ ؟ إِنَّ مَعْنَاهُ بِيَسَاطَةِ أَنْ يَدِينِ الْإِنْسَانَ بِالْوَلَاءِ لِلشَّيْطَانِ أَوْ لِلْحَيَّةِ بِمَقْدَارِ مَا يَدِينُ بِهِ مِنَ الْوَلَاءِ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، فَإِذَا كَانَ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ أَنْعَمَ عَلَى الْإِنْسَانِ بِالْخَلْقِ فَالشَّيْطَانُ قَدْ أَنْعَمَ عَلَيْهِ بِالْمَعْرِفَةِ .. وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الضَّلَالِ .

رَابِعًا : إِذَا حَاوَلْنَا الرِّبْطَ بَيْنَ هَذِهِ الرِّوَايَةِ وَمَا دَعَا إِلَيْهِ بُولَسُ مِنَ التَّحَرُّرِ مِنَ النَّامُوسِ وَالشَّرِيعَةِ ، وَجَدْنَا أَنَّ بُولَسَ يَرَى الْخَلَاصَ وَحْدَهُ فِي الْجَهْلِ بِالشَّرِيعَةِ وَتَعْطِيلِهَا ، وَلِهَذَا لَا نَعْجَبُ عِنْدَمَا نَقْرَأُ رِسَائِلَ بُولَسَ فَنَرَاهُ يَطِيلُ فِي فِلَسَفَةِ الْخَطِيئَةِ وَيَحَاوِرُ وَيَنَاقِشُ لِيَصِلَ بِالْقَوْمِ إِلَى عَكْسِ مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ الْمَسِيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « مَا جِئْتُ لَأَنْقُضَ النَّامُوسَ ... » .

(١) وَهَذَا مَعْنَى الْعِبَارَةِ الْمَشْهُورَةِ الَّتِي نَسْمَعُهَا كَثِيرًا (الْقَانُونُ لَا يَحْمِي الْمَغْفَلِينَ) ، وَالْعِبَارَةُ الْأُخْرَى (الْجَهْلُ بِالْقَانُونِ لَا يُعْنِي مِنَ الْمَسْئُولِيَةِ) ذَلِكَ لِأَنَّ وَسَائِلَ الْمَعْرِفَةِ مَتَاحَةً لِلْإِنْسَانِ ، وَلَكِنَّهُ قَصُرَ فِي تَحْصِيلِهَا فَكَانَتْ الْمَوَاضِعُ أَقْرَبَ ، أَمَّا الْمَجْنُونُ فَهُوَ غَيْرُ مَسْئُولٍ عَنْ أَعْمَالِهِ لِأَنَّهُ لَمْ تَتَوَافَرَ لَهُ وَسَائِلُ الْمَعْرِفَةِ لِأَنَّهُ فَاقِدُ الْأَهْلِيَّةِ .

وإذا بنا نرى بولس يعطى نفسه حقَّ التشريع والأخذ عن المسيح ليقول لهم : « انقضوا التاموس وتحذروا من الشريعة ولا تختنوا » ... إلخ ما نسخ وحكى .

ويمكن تلخيص تعاليم بولس على الوجه الآتى :

ما دامت الشريعة قائمة فالخطيئة تُرتكب ، ولكن المسيح أبطل الشريعة بصلبه فبطل ارتكاب الخطيئة .

القضية الكبرى صحيحة ، فإن الشريعة عبارة عن الأوامر والنواهي التى تبين للناس حكم الأمر الإلهي المطلق ومشيعته ، وإن الذى يعين الوظيفة والحقوق هو القانون ، والقانون نفسه هو الذى يعين المسؤولية والجزاء أيضاً ، وكما أن الطاعة للشريعة تعدُّ صلاحاً فمخالفة الشريعة تحسب خطيئة ، فبولس يسوق نتائج أقيسته كلها فى هذا المركز .

« وما دام الأمر باقياً فالوظيفة بالطبع ثابتة ، وحينما يرتفع الأمر تُلغى الوظيفة ، وبناءً عليه فالمسؤولية (أى الصلاح والخطيئة) موقوفان على وجود الشريعة ، وباعتبار النتيجة كما أن الصلاح أى طاعة الشريعة يوجب النجاة فالخطيئة (أى تعدى الشريعة) تنتج الهلاك ، إذن فالشريعة هى التى تعرف الخطيئة وتميزها وتفرقها ، لأنه إن لم تكن الشريعة فبأى واسطة أتمكن من معرفة الحلال من الحرام والخير من الشر والفضيلة من الرذيلة ؟ والخلاصة كيف أعرف الخطيئة والسيئة والمعصية ؟

يقول بولس : « بالشريعة تُعرف الخطيئة » (رو ٣ : ٢٠)

ويقول : « فماذا نقول ؟ هل الشريعة خطيئة ؟ حاشا . بل لم أعرف الخطيئة إلا بالشريعة ، فإننى لم أعرف الشهوة لو لم تقل الشريعة لا تشته ، ولكن الخطيئة هى متخذة فرصة بالوصية أنشأت فى كل شهوة ، لأن بدون الشريعة الخطيئة ميتة ، أما أنا فكنت بدون الشريعة عائشاً قبلاً ولكن لما جاءت الوصية عاشت الخطيئة فميت أنا ، فوجدت الوصية التى للحياة هى نفسها لى للموت ، لأن الخطيئة هى متخذة فرصة بالوصية خدعتنى بها وقتلتنى ، إذأ الشريعة مقدسة والوصية مقدسة وعادلة وصالحة » .

(رو ٧ : ٥ - ١٢)

وتتضح معالم فكر بولس فى هذا الموضوع باستعراض بعض توجيهاته المختلفة :

« لأنه بأعمال الشريعة كل ذى جسد لا يتبرر أمامه » (رو ٣ : ٢٠)

« فإنه يصير إبطال الوصية السابقة من أجل ضعفها وعدم نفعها أو الشريعة لم تكمل شيئاً »
(عبرانيين ٧ : ١٩)

« المسيح افتدانا من لعنة الناموس إذ صار لعنة لأجلنا »
(غلاطية ٣ : ١٣)
ويقول : « الآن تحررنا من الشريعة »
(روم ٦ : ٧)

« فإن الخطيئة لن تسودكم لأنكم لستم تحت الشريعة بل أنتم تحت العناية » .
(روم ٦ : ١٤)

« المسيح صار لعنة لأجلنا إذ خلصنا من لعنة الشريعة »
(غلاطية ٣ : ١٣)
وخلاصة هذه التعاليم أن بولس يحاول أن يثبت تعليمه الوحيد ، وهو عبارة عن أن دم المسيح صار كفارة أعتق العالم وخلصه من لعنة الشريعة ومن أسرها ^(١) .

فماذا قال القرآن في هذه النقطة ؟

حكى لنا القرآن الكريم قصة خلق آدم ووضح أن الله تعالى قد أنعم عليه بالعلم كما أنعم عليه بالخلق « وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا »
(البقرة : ٣١)

وقد هيا الله له وسائل المعرفة وعندما قصر في التنفيذ عوّبَ على هذا الخطأ .
فلم يكن الشيطان أو الحية بمثابة الآلهة للإنسان ولم يرجع الفضل إليهما في توجيه الإنسان للمعرفة ، وليس هنا مجال التفصيل ... فليرجع - من شاء - إلى القصة في مظانها من كتب التفسير .. والدراسات المختلفة والحمد لله على نعمة الإيمان .

خلاص الرسل منظومة إلهية لا تختلف

قال الله تعالى في القرآن الكريم : « سَنَنْتَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسْتِنَا تَعْوِيلًا »
(الإسراء : ٧٧)

اعلم أن الله تعالى اختط خطة في رسله وجعل لهم الغلبة كما قال تعالى : « كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ » (المجادلة : ٢١) ، وقال سبحانه : « ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ

(١) كتاب « الإنجيل والصليب » عبد الأحد دارد ص ١٦٢ - ١٦٧ .

آمَنُوا كَذَلِكَ (يونس : ١٠٣) ، فهي سنة إلهية لا تتخلف ، فقد نجى الله تعالى إبراهيم من النار حين قذفه الكفار فيها انتصاراً لآلهتهم الكاذبة ، ونجى إسماعيل من الذبح وفداه ، ونجى يوسف من السجن ومن المهالك حتى جعله عزيزاً في مصر ونجى يونس من بطن الحوت ونجى موسى ، وهو رضيع في التابوت ثم نجاه ونجى قومه من فرعون بأن شق لهم البحر، ونجى عيسى المسيح عليه السلام من مطاردية ورفعه الله إليه ونجى محمداً ﷺ من أعدائه ليلة الهجرة فلم يتمكن منه القتل وأواه في الغار وسخر له العنكبوت فنسج خيوطه على باب الغار .

إنها السنة الإلهية التي لا تتخلف ولم يشذ أحد عن هذه القاعدة سوى ما فعله بنو إسرائيل بأنبيائهم ، كما قال تعالى : ﴿ فَفَرِقَا كَذِبُكُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ (البقرة : ٨٧)

وكان هذا ابتلاء لهم لإظهار عدم أحقيتهم بالاستخلاف والتفضيل الذي نقل عنهم وشرفت به أمة محمد ﷺ ، كما قال تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (آل عمران : ١١٠)

الخلاصة

من الأمور التي استقرت في معتقد النصارى أن المسيح عليه السلام هو المخلص الذي قدم نفسه على الصليب ليفتدي الجنس البشري من لعنة الخطيئة .

وهذا المعتقد وقف أمامه كثير من المفكرين المسلمين يحاولون تفنيده عقلياً ودارت معظم مجادلاتهم حول الصلب وأنه لا يجوز عقلاً صلب (الابن) لإرضاء (الأب) ليتجاوز عن خطايا البشر ، واستغرقت هذه المجادلات الكثير والكثير من الصفحات والوقت ، وما غاب عن الكثير من الباحثين عن الحقيقة معنى الخطيئة التي كفرها المسيح عليه السلام بأن قدم نفسه على الصليب (في زعم من يعتقد ذلك) ليفتدي الجنس البشري فظنوا أن هذه الخطيئة هي مجرد أكل آدم من الشجرة التي نهى عنها ، وقد كثر الحديث كما قلنا دون نتيجة واضحة والحقيقة أن مسألة افتداء الجنس البشري لها معنى خاص في التفكير (المسيحي) فقد حدد بولس القضية متمثلة في النقاط الآتية :

* أكل آدم من الشجرة رغم تحذيره من ذلك .

- * طرده الله من الجنة وأنزله إلى الأرض .
- * كان مقتضى ذلك أن يشقى آدم بتكليفات الناموس (القانون والشرعة) .
- * وظل هذا الشقاء ملازماً للجنس البشرى بإرسال الأنبياء وتكليف الناس .
- * إلى أن جاء المسيح المخلص .. الذى أنقذ البشرية من لعنة الناموس ، وحررهم من الالتزام بقانون الشرعة .
- * قدم المسيح (فى زعمهم) نفسه من أجل ذلك ولما عُلّق المسيح على الصليب .. صار لعنة ، ورضى لنفسه أن يكون لعنة ليخلصهم من لعنة الشرعة (الناموس)^(١) .
- * وعلى هذا فهم يعيشون فى براح ويرتعون فى عالم بلا قانون إلهى يفعلون ما يشاءون دون خوف من عقاب إلهى ؛ لأن المسيح قد حمل ذلك عنهم .
- وإن صحت هذه الافتراضات عنهم وهى موجودة فى رسائل بولس وبالنص : صار المسيح لعنة ليخلصهم من لعنة الناموس .
- أقول : إن صحت فإنك تستطيع أن تفهم ما يجرى فى الدول التى تدين (بالمسيحية) فى أوروبا وأمريكا :
- ١ - الزنى العلنى .. وممارسة الرذيلة .
- ٢ - الشذوذ الجنسى .
- ٣ - التعامل الربوى .
- ٤ - رفض الطلاق ورفض الزواج من أكثر من واحدة رغم السماح باتخاذ الأخدان ومعاشرة غير الزوجات .
- ٥ - عدم الالتزام بعبادات مفروضة وإطلاق يد الأحرار والرهبان فى تشريع ما يشاءون من قداسات ، والتصرف فى الصيام حسب الرغبة فمن صيام كبير إلى صيام غير كبير ، ثم صيام انقطاعى من منتصف الليل إلى منتصف النهار .
- ٦ - شرب الخمر وبيعه وتداوله .

(١) رسالة بولس لأهل رومية (٧ : ٤ - ٦) ، واجع ما كتبناه عن هذا الموضوع تحت عنوان : أين الحقيقة .

٧ - أكل لحم الخنزير والميتة .

وغير ذلك مما لو قلبنا صفحات الكتاب المقدس بعهديه لوجدناه يصرح بضدها .

والباحث حين يجهد نفسه فى البحث فى الكتاب المقدس لإثبات أن ما هم عليه لا يمثل الحقيقة فإنهم لا يعيرونه أى التفات ؛ لأنهم بما يعتقدونه من الصلب فداء للخطيئة قد أفلتوا من حيز التشريع ولعنة الناموس ؛ لأنه بالناموس يعرف الإنسان الخطأ والصواب ، أما حين أفلت من الناموس وأنقذ المسيح الناس من لعنة الناموس فقد صاروا أحراراً غير مخطئين مهما فعلوا ، ومهما خالفوا غيرهم من أصحاب الناموس سواء من السابقين كاليهود أو من اللاحقين كالمسلمين .

ولذلك لا تعجب حين تقرأ لبولس فى رسائله أن الختان الذى أمرت به الشريعة (شريعة موسى) غير مطلوب ؛ لأن المطلوب أن يصيروا مختونين بالقلب . يعنى الختان المعنوى .

وأيضاً لا تعجب حين جعل بولس نفسه لليهودى كيهودى . ولأصحاب الناموس مثلهم وللخارجين عن الناموس كأنه بغير ناموس (أى شريعة) وهذا ما صرح به فى رسائله .

لا تعجب من هذا ولا من غيره مما هو أشد منه أو أقل عجباً منه . لأن الصلب قد أنهى القضية فى زعمهم ؛ ولهذا فإن من الطبيعى أن نصير البيئة المسيحية فى أوروبا وأمريكا أرضاً خصبة للآراء المخالفة . ففيها نبت الإلحاد وفيها ظهرت دعوات الخروج على المجتمع وفيها ازدهرت النظريات الشيوعية فى السياسة والاجتماع . وسادت نظريات ودعوات كثيرة لا يمكن تفسيرها إلا بهذا المنطق فى فهم الخطيئة .

وليس لنا من تعليق على هذه النظرة إن كانت صحيحة إلا أنها دعوة للهدم وإبطال الإيمان واتهام للحكمة الإلهية التى رضيت بتقديم الكبش وتحوله إلى لعنة ليمرح الناس كما يشاءون بعيداً عن الرقابة الإلهية . بل ولا يملك الإنسان إلا أن يتساءل عن الحكمة فى تأخير الفداء أجيالاً يشقون بالناموس لينعم أجيال أخرى بعد ذلك بالتححرر من هذا الناموس .

وتلك دعوة إلى أن يتفوق الزنديق على الصديق ، ويتسوأ فيها الفاسق منزلة فوق الأبرار .

وصدق الله العظيم حين يقول في القرآن وقوله الحق ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾
(البقرة : ١١ ، ١٢)

إن مثل هذه الدعوة إبطال للعزة الإلهية وما يشرعه الله لخلقه ، وفي نفس الوقت فيها إطلاق لأيدي الأحبار والرهبان يشرعون لأتباعهم كما يشاءون ، وهذا ما نعه القرآن عليهم في قوله تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ .
(البقرة : ٣١)

والله يقول الحق وهو يهدي إلى سواء السبيل .



الْفَصْلُ الثَّالِثُ

الخطيئة والخلاص في الإسلام - أو التوبة

تمهيد

عُرِفَتْ في الإسلام التوبة بهذا الاسم ولم تُعرَف باسم الخلاص ، وإنما جعلنا العنوان « الخطيئة والخلاص » جرياً على ما سبق وعرضناه في الفصلين السابقين .
والتوبة باب عظيم في الإسلام إذ يفتح باب الأمل أمام كل مسلم وبلا استثناء ، للرجوع إلى الخير ، واستئناف رحلة العمل الصالح .. ويستطيع المسلم أن يقوم بكل شيء ، فلا واسطة ، ولا تدخل من أحد . والإسلام يخلي بين المسلم وربه ، فقد أخذت النصوص بيده ودلته على المسار الصحيح .. كما سنرى إن شاء الله تعالى .

خطيئة آدم وموقف الإسلام منها

يذكر القرآن الكريم قصة الصراع بين آدم عليه السلام والشیطان حيث استطاع الشيطان أن يخرج آدم من الجنة فقد زين له أن يأكل من الشجرة التي نهاه الله عن الأكل منها قال تعالى : ﴿ وَبَا أَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (البقرة : ٣٥)

ولم يترك الشيطان آدم وزوجه يهنآن بحياتهما بل تمكن من إغوائهما : ﴿ فَوَسَّسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبُلَى . فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَرَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ رَقِّ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ (طه : ١٢٠ ، ١٢١)

وكان لا بد من أن يهبط آدم وزوجه من الجنة وكان الأمر الإلهي : ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ (طه : ١٢٣)

وهكذا نزل آدم وزوجه من الجنة بسبب الخطأ الذي أوقعه فيه الشيطان ، قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ نَفْسِي وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾

(طه : ١١٥)

وهنا يحسم القرآن قضية الخطيئة ، فى صراحة وبساطة وفى أسلوب قاطع لا يدع مجالاً للاجتهادات الشخصية أو التخمينات العشوائية ، بل وضعها فى إطارها الطبيعى المتفق مع قوانين العقل ، وضرورات الحياة الأرضية التى نزل إليها آدم .

وكان أول شيء أن أعلن آدم وزوجه حواء الندم ، واعترفا بخطئهما : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

(الأعراف : ٢٣)

وبعد ذلك ألهمهم الله التوبة : ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ .

(البقرة : ٣٧)

وهكذا قضى الله بأمره فى خطيئة آدم ، ورفع مكانه إلى عليين : ﴿ ثُمَّ اجْبَاَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ (طه : ١٢٢) ، اصطفاه واخـ... بالمنزلة السامية عنده .. وبدأ آدم عليه السلام رحلة الحياة الأرضية - هو وزوجه - دونما خطيئة ، ولا يؤرقهما ذنب فلقد من الله عليهما بالتوبة - ورفعهما مكاناً علياً .

وقد بدأت معركة طويلة .. معركة بين الإنسان والشیطان على الأرض .. اختبار مستمر يتعرض له أبناء آدم ، ومن نجح عاد إلى الجنة ، ومن ضعف أمام الشيطان هوى معه إلى الجحيم .

وقد أمد الله بنى آدم بوسائل عديدة لمواجهة الشيطان والانتصار عليه وفتح له باب الخلاص وذلك بالتوبة .. وهو ما سنفصله فيما بعد إن شاء الله تعالى .

الخطيئة وفطرة الإنسان

لم يخلق الله الناس معصومين من الخطأ بعيدين عن الزلل ، بل جعلهم الله قادرين على فعل الخير والشر ، قال تعالى :

﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَفَهْمَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ (البلد : ٨ - ١٠) ، والنجدان : الطريقان الواضحان طريق الخير وطريق الشر .. وهذا بعض معانى الكلمة ^(١) .

وقال سبحانه : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾

(الشمس : ٧ - ١٠)

(١) انظر : لسان العرب (مادة : نجد) .

والمأمل في هذه الآيات الكريمة يستطيع أن يلحظ ما يأتي :

أولاً : قوله تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ إشارة إلى أن هذه النفس الإنسانية وبالصورة التي هي عليها - في أتم خلقها - كما قال سبحانه : ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ (غافر : ٦٤ ، والتغابن : ٣) فلا نقص في النفس الإنسانية ولا تشويه .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ جعل الله الأمرين فطرة .. وفي طبيعة الخلق والتكوين .. وقدمت الآية الفجور على التقوى إظهاراً لإمكان غلبة الغرائز والشهوات وإمكان تسخيرها للشيطان .. وفي التقديم تنبيه على خطورة الفجور على حياة الإنسان إذا تغلب .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ كررت الآيات لفظ « قد » للتوكيد على كُُلِّ من الأمرين للإشعار بأن لكل أمر منهما مجاله ، ولا ينبغي أن يختلط أحدهما بالآخر فيظن في أسباب التزكية أنها ليست أهلاً لذلك .. وكذا في أسباب التدسية ^(١) .

ونلاحظ كذلك أن الآية هنا قدمت التزكية . للاهتمام والتنبيه على ضرورة السعي إليها .. فينبغي أن تكون مقدمة في كل عمل للإنسان .

ويوضح رسول الله ﷺ أن الذنب مُركَّب في فطرة الإنسان ، ففي الحديث القدسي أن النبي ﷺ قال : « إن الله تبارك وتعالى يقول : يا عبادي كلكم مذنَّب إلا من عافيت ، فاستغفروني أغفر لكم ... » ^(٢) .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسـ الله ﷺ : « كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون » ^(٣) .

وهكذا يوضح الرسول ﷺ أن الخطأ في حد -ه من طبيعة الإنسان ، وذلك حتى لا يخجل الإنسان من نفسه ، وحتى يستطيع أن يواجه خطأه مواجهة طبيعية بلا حساسية أو عجز ، أو غير ذلك مما يضاعف مخاطر الذنب على النفس والمجتمع على السواء .

(١) التدسية (ضد التزكية) . وهي تدنيس النفس بارتكاب الخطايا والذنوب .

(٢) رواه أحمد وابن ماجه .. ومعناه عند مسلم .

(٣) رواه أحمد والترمذى .

ويبلغ حرص الإسلام مداه على أن يقف الإنسان في مواجهة صريحة مع ذاته ، حتى يتقبل وجوده كما هو ، فلا هو بالشيطان المجرم ، ولا هو بالملك المسخر ، وإنما هو إنسان فيه الخير وفيه الشر ، وهو مطالب بتنمية الخير والحد من الشر .

عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « كفارة الذنب الندامة » .

وقال رسول الله ﷺ : « لو لم تُذنبوا لجاء الله عز وجل بقوم يُذنبون ليغفر لهم » ^(١) .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « والذي نفسى بيده لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض ثم استغفرتم الله عز وجل لغفر لكم ، والذي نفس محمد بيده لو لم تخطئوا لجاء الله عز وجل بقوم يخطئون ثم يستغفرون الله فيغفر لهم » ^(٢) .

أرأيت كيف يفتح الإسلام باب الأمل والإقبال على الحياة أمام أتباعه !!

إن الخطيئة - إذن - هى سبب نزول آدم إلى الأرض ، وقد استمر أبناء آدم - إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها - فى مواجهة الشيطان ، لا بخطيئة آدم - كما تزعم بعض الأديان - ولكن بطبيعتهم وفطرتهم وما يعترىها من تغييرات وأطماع وشهوات .

الله يفرح بتوبة عبده المؤمن

إن الله بالناس لرؤوف رحيم ، لا يحجب عنهم رحمة ولا يقف لهم يترصد خطاياهم ليذلهم بها ... وإذا كان البعض من البشر يتحين الفرص للإيقاع بغيره ، واستخدام هفواته للنيل منه وإيذائه .. فإن المولى سبحانه وتعالى لطيف بعباده ينتظر عودتهم إليه ويفتح لهم جميع الأبواب إليه .

روى عن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّ الله تعالى يسطر يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويسطر يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها » ^(٣) . فكل أوقات اليوم محلٌ للتوبة .

(١) رواه أحمد ، وله شواهد .

(٢) قال فى الفتح الربانى : رجاله ثقات .

(٣) رواه الإمام أحمد ومسلم . وظلوع الشمس من مغربها يعنى يوم القيامة ؛ لأن هذا من علاماتها .

ويسوق الحديث الشريف الآتى جانباً من جوانب فضل الله تعالى على عباده المؤمنين :
عن أبي ذر رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن الله عز وجل يقول : يا عبدى ، ما
عبدتنى ورجوتنى فإنى غافر لك على ما كان فيك ، وما عبدى إن لقيتنى بقرباب الأرض
خطيئة ما لم تشرك بى لقيتك بقربابها مغفرة » (١) .

وعن النبي ﷺ قال : « قال الله عز وجل : يا ابن آدم قم إلى أمشي إليك ، وامش إلى
أهرول إليك » (٢) .

وقال ﷺ : « من تقرب إلى الله عز وجل شبراً تقرب إليه ذراعاً ، ومن تقرب إليه
ذراعاً تقرب إليه باعاً ، ومن أقبل إلى الله عز وجل ماشياً أقبل إليه مهرولاً ، والله أعلى
وأجل » (٣) .

وهكذا نرى أن الباب مفتوح على مصراعيه أمام المؤمنين ، ييسط إليهم ربهم يده
ويمنحهم الأمل ، ويزداد التفاؤل والرغبة فى التوبة عندما نقرأ التصور النبوى للفرحة
الإلهية بتوبة العبد المؤمن ، فعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله
ﷺ : « لله أفرح بتوبة أحدكم من رجل خرج بأرض دوية مهلكة معه راحلته عليها
طعامه وشرابه وزاده وما يصلحه ، فأضلها فخرج فى طلبها ، حتى إذا أدركه الموت فلم
يجدها قال أرجع إلى مكائى الذى أضللتها فيه فأموت فيه . قال : فأتى مكانه فغلبته
عينه فاستيقظ فإذا راحلته عند رأسه عليها طعامه وشرابه وزاده وما يصلحه » (٤) .

زاد فى رواية : « فما هو بأشد بها فرحاً من الله بتوبة عبده إذا تاب » .

ولنقرأ الآن هذه الآيات المباركات لنرى كيف تلمس قلب المؤمن بهنان وتنجه إلى
روحه فى إشفاق وحب ، يقول تعالى موجهاً الخطاب إلى نبيه ﷺ :

﴿ نَبِّ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ (الحجر : ٤٩ ، ٥٠)

وهذا السياق سياق البشرى لعباد الله ، إذا اقتربوا من الله تعالى .

يقول الله تعالى : « وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ

(١) رواه ابن ماجة والإمام أحمد . وله شواهد . (٢) رواهما أحمد .

(٣) رواه الإمام أحمد بطرق مختلفة ، وزاد مسلم فى رواية : « ثم قال : اللهم أنت عبدى وأنا ربك ،
أخطأ من شدة الفرح » .

الرَّحْمَةُ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ سَوْأً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٤﴾ (الأنعام : ٥٤)
وهذا أسلوب فى منتهى التسلف والمودة :

* سلام عليكم ..

* كتب ربكم على نفسه الرحمة .. ولن يخلف الله وعده ..

وتأمل معى ذلك القول الرحيم ، الذى يأخذ بمجامع القلوب ويدخل إلى النفس من كل مدخل رقيق رقيق :

﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾
(الزمر : ٥٣)

آيات باهرات .. تقطع بفضل الله تعالى على عباده المؤمنين ، ولو تتبعنا أى القرآن الكريم لضائق بنا المجال ، ولكننا اكتفينا بهذه الآيات العظيمة توضيحاً للهدف ، ألا وهو فرحة رب العزة بعودة العبد إليه سبحانه وتعالى . وقد رأينا كيف مهدت لهم العناية الإلهية الطريق للعودة دائماً وفى أى وقت وبلا خوف قبل أن تطلع الشمس من مغربها .

حساسية المؤمن للذنب

قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه فى أصل جبل يخاف أن يقع عليه ، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه فقال له هكذا فطار .
وهذا تحليل صادق لطبيعة المؤمن إزاء ذنبه ، وكذا طبيعة الفاجر الذى يستهين بذنوبه ولا يعمل لها حساباً .

وقد قال الله تعالى مبيناً يقظة المؤمن بالعودة إلى الصواب إذا زلَّ : ﴿ إِنَّ الدِّينَ اتَّقُوا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ * وَأَخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَىِّ ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ ﴾ .
(الأعراف : ٢١٠ ، ٢٠٢)

والآيات توضح جانبين من جوانب مواجهة الخطيئة :

الأول : جانب المؤمنين الذين ينتبهون سريعاً « فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ » أى يفتقدون .

الثانى : جانب الإغواء .. وهو الذى وضحت الآية فى قولها : « وَأَخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَىِّ ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ ﴾ .. والغى : الضلال ، وهم لا يقصرون : فى التأثير عليهم ومحاولة إغوائهم .

ويضرب الرسول ﷺ المثل للمؤمن وسرعة رجوعه عن المعصية ، فعن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : « مثل المؤمن ومثل الإيمان كممثل الفرس فى أخيقته يجول ثم يرجع إلى أخيقته ، وإن المؤمن يسهو ثم يرجع فأطعموا طعامكم الأتقياء ، وأولوا معروفكم المؤمنين » (١) .

والحديث يوضح بجلاء كيف أن المؤمن مرتبط بإيمانه حتى إذا سها وقارف الذنوب فإنه يعود سريعاً إلى إيمانه ، لا يغيب عنه .

ولعل فى هذا الحوار الذى دار بين رسول الله ﷺ وأحد أصحابه ، ما يوضح رغبة المؤمن فى الرجوع إلى الله . فعن أبي طويل أنه أتى النبي ﷺ فقال : « أ رأيت من عمل الذنوب كلها ولم يترك منها شيئاً وهو فى ذلك لم يترك حاجة ولا داجة (أى صغيرة ولا كبيرة) إلا أتاها ، فهل لذلك من توبة ؟ قال : فهل أسلمت ؟ قال : أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله . قال : تفعل الخيرات وتترك السيئات .. فيجعلهن الله لك خيرات كلهن (أى إذا تركت السيئات بدلها الله حسنات) . قال : وغدراتي وفجراتي ؟ (أى الخيانات والمعاصي) . قال : نعم . قال : الله أكبر .. فما زال يكبر حتى توارى » (٢) .

ومصدق ذلك من كتاب الله تعالى : « إِنْ مِنْ تَابٍ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا » (الفرقان : ٧٠)

وأخيراً تأمل معنى قوله تعالى مبيناً سرعة عودة المؤمن إلى الله وتذكره :
« وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ » (آل عمران : ١٣٥)

المستحقون للتوبة والمحرومون منها

من الأمور البديهية فى الإسلام أن حقائقه تعتمد على أساسى العمل والإخلاص لله وحده لا شريك له ، ولا شأن لأحد من الناس بهذين الأساسيين ، فالإسلام يغلى بين

(١) رواه المنذرى فى الترغيب والترهيب (باب التوبة) والآخية ما يربط فيه الدابة كاللؤد ونحوه ، ويجول أى يدور ..

(٢) انظر : الترغيب والترهيب ، للمنذرى ، باب التوبة ، قال : إسناده جيد قوى .

الفرد وربّه ، لأن الله هو المطلع على خفايا القلوب وأسرار النفوس ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . ولذلك فلا واسطة بين الإنسان وربّه ، ولا سلطان لأحد على أحد إلا أن يوجهه العالم الجاهل ، ويأخذ البصير بيد إخوانه ليدلّهم على الطريق .. فقط .. أما قبول الأعمال وغفران الذنوب فأمرها إلى الله تعالى وحده يفصل فيها .

ولقد جاء أمر التوبة - في الإسلام - متسقاً مع مبدأ المسؤولية الفردية التي أقرها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة .. حيث وضع الإسلام كل فرد أمام مسؤولياته .. فأعطاه حق الاختيار :

﴿ وَقُلْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ (الكهف : ٢٩)

وأمام هذا الحق وضعت المسؤولية الفردية :

﴿ مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّٰ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (الإسراء : ١٥)

وأعطاه حرية التصرف :

﴿ ... اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ... ﴾ (فصلت : ٤٠)

﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ ﴾ (الإسراء : ٨٤)

ومع هذا الحق يرتفع مبدأ تحمل النتائج .. مبدأ المسؤولية على العمل :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ (فصلت : ٤٦)

﴿ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ (الإسراء : ٧)

ولا عذر لمعتذر - يوم القيامة - بعدما وضحت الأمور ، وعمت الرسالة ، ولن يقبل عذر التبعة لأحد ، إذ لا بد أن يتحمل كل فرد مسؤوليته ، ومن عطل عقله وجعله تابعاً لعقل غيره وفكره فليتحمل مسؤولية ذلك :

﴿ وَتَزُوا اللَّهَ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّقْنُونَ عَلَيْنَا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُ عَلَيْنَا أَمْ هَبْرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ ﴾ (إبراهيم : ٢١)

بل إن الشيطان نفسه يحمل كل فرد مسؤوليته - يوم القيامة - ويتنصل من كل تبعة أو مسؤولية فيقول :

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ

مَنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ» (إبراهيم : ٢٢)

هكذا بوضوح وصراحة يقف كل إنسان ، بل كل كائن ، أمام مسؤوليته الفردية .
ويعتبر فتح باب التوبة أمام المؤمنين امتداداً لهذا المبدأ ، مبدأ المسؤولية الفردية ، إذ أراد الإسلام أن يضع الفرد أمام مسؤوليته الكاملة .. فوضّح له الحقائق الآتية :

* إِنَّهُ قَدْ يُخْطِئُ ، وهذا لا شىء فيه .. وقد وضّحنا هذا الأمر .

* إِنَّ عَوْدَتَهُ إِلَى الصَّوَابِ تَفْتَحُ لَهُ بَابَ « حَبِّ اللَّهِ » قَالَ تَعَالَى : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ » (البقرة : ٢٢٢)

* عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَكُونَ يَقْظاً فَلَا يَتْرِكُ لِلشَّيْطَانِ فُرْصَةً عَلَى نَفْسِهِ أَوْ بَاباً إِلَى قَلْبِهِ إِلَّا وَبَادِرَ لِإِغْلَاقِهِ .

فإذا تحققت فى المؤمن هذه الأمور الثلاثة كان حقاً على الله أن يتوب عليه ويهديه إلى سواء السبيل .

وقد قطع الله العهد على نفسه - ولن يخلف الله عهده - بأن يَمُنَّ بالتوبة على المؤمنين الحريصين عليها ، قال تعالى :

« إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً » وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً » (النساء : ١٧ ، ١٨)

وقد حددت هذه الآيات شروط التوبة المقبولة وأحوال التوبة المرفوضة وهاكم البيان :

* نلاحظ أن الآيات تصدرت بالتوكيد فى الجانب الخاص بالتوبة المقبولة إذ استخدمت « إنما » ، كما جعلت التوبة عهداً « على الله » ، أما الجانب الآخر - جانب المحرومين - فقد جاء الإخبار عن حرمانه إخباراً قاطعاً حيث قال تعالى : « وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ » ، ولم يرد فى السياق لفظ العهد وهو قوله تعالى « على الله » وهو الذى ورد فى الجانب الخاص بالتوبة المقبولة ، وذلك ليوضح أن المحرومين ليس لهم على الله عهد .. وإنما العهد للمقبولين وحدهم ، فالتوبة لهم « على الله » عهداً قطعه الله تعالى على نفسه تطميناً لأنفسهم .. ولكن من هم المقبولون ؟

لقد حددت الآيات خاصيتين من خواص هؤلاء السعداء :

أولاهما : أنهم يعملون السوء بجهالة .. والجهالة تحمل معنى الجهل .. ولكنها تزيد فتُصِف حالة الاندفاع .. التي يتصف بها الإنسان العاصي لحظة ارتكابه المعصية .. حيث تغريه الظروف وتدفعه إلى ارتكاب الإثم دون تدبير أو تخطيط .. ويؤيد هذا ما جاء في سياق الآية .. حيث قال تعالى : ﴿ قُمْ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ ﴾ ، مما يدل على أنهم ليسوا مُصْرِينَ على الذنب ، ولم يدبروا له كسائر المجرمين الذين يقضون الليل ساهرين يخططون لجرائمهم .

أما الثانية : فهي إسراعهم إلى التوبة بحيث لا يمر وقت طويل إلا وتكون التوبة قد أخذت طريقها إلى قلوبهم « من قريب » ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ ^(١) (الأعراف : ٢٠١)

* أما المحرومون فهم هؤلاء الذين يعيشون غارقين في الشهوات وفعل السيئات غافلين عن العقابة التي تنتظرهم ، ولا يفيقون إلا على الحقيقة .. بعد فوات الأوان .

* إذا حضرهم الموت .. وبلغت الروح الحلقوم .

* أو يموتون كافرين .

وفي كلتا الحالتين لا تُقِيل التوبة مطلقاً ، كما صرّحت بذلك الأحاديث النبوية الشريفة .. تأكيداً لما جاء في القرآن الكريم .

من فضل الله تعالى على المؤمنين

نُجمل هنا بعضاً من فضل الله على عباده المؤمنين ، ويتمثل هذا الفضل فيما يمنحه الله لعباده من عطايا غير منظورة ، أخبرنا بها القرآن الكريم ، كما دلّتنا عليها السنة النبوية الشريفة .. وهاكم بعض تلك المنح :

١ - المنحة الإلهية : وهي التي ذكرها القرآن في قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ (الأحزاب : ٤٣)

وصلاة ربنا رحمة لنا يوضح ذلك قوله تعالى : ﴿ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ .

(١) إذا (الثانية) فجائية وتدل على السرعة والفاء تأكيد لهذه السرعة ، أما إذا (الأولى) فهي شرطية للمستقبل .

٢ - المنحة النبوية : وقد ذكرها القرآن في قوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾
(التوبة : ١٠٣)

وصلاة الرسول ﷺ استغفار وشفاعة .

٣ - المنحة الملائكية : وقد جاءت في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾
(غافر : ٦ - ٨)

فانظر إلى رحمة الله تعالى بالمؤمنين إذ سخر لهم حملة العرش ومن حوله .. من الملائكة .. يسبحون الله تعالى ، ويستغفرون للمؤمنين ، ويدعون لهم بالجنة ، فإذا نزلنا إلى ميدان المواجهة بين الناس والشیطان رأينا كيف أمد الله المؤمنين بعونه وتأييده ليطول كيد الشيطان ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾
(النساء : ٧٦)

وليس معنى ذلك أن القرآن يهون من أمر هذه المواجهة .. بل إنها مواجهة خطيرة على الإنسان ، فقد زود الشيطان بمقدرة على التعرف على مداخل النفس الإنسانية ونقاط ضعفها ، قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾
(الأعراف : ٢٧)

ولهذا زود الله الإنسان بأسلحة للمواجهة مع الشيطان ومنها :

١ - جعل الله الحسنة بعشر أمثالها .. والسيئة بمثلها ، وهذا الحساب على الحسنات يعتبر الحد الأدنى ، فهناك الحسنة بسبعمئة مثل ، وهناك الجزاء بلا حدود ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤْتِي السَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾
(الزمر : ١٠)

٢ - فتح لهم باب التوبة بعد السيئات فيبدلها الله لهم حسنات : ﴿ فَأُولَئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾
(الفرقان : ٧٠)

٣ - فتح الله للمؤمنين أبواب الخير بلا عناء .. فجعل الكلمة الطيبة صدقة ، ومنح المؤمنين الأجر على النية الحسنة ، وعلمهم الاستغفار والتسبيح والتهليل ، وجعل أجر قراءة القرآن عظيماً .. على كل حرف عشر حسنات .

٤ - أعطى الله لنبيه الشفاعة العظمى يوم القيامة ، وجعله يشفع للمذنبين ، فيجيرهم الله من عذابه إكراماً لنبيه محمد ﷺ ، وقد وردت في ذلك الأحاديث الصحيحة ^(١) .

فضل التوبة والاستغفار

أفرد العلماء من المسلمين - رضوان الله عليهم - كتباً للحديث عن التوبة والاستغفار ، ومعظم من لم يتيسر له ذلك الأفراد جعل لهما باباً من أبواب كتبه ، والآن نأخذ بيدك إلى بعض معاني التوبة والاستغفار كما وردت في بعض آيات القرآن الكريم لعلنا نفوز بالهداية إلى التوبة من الذنوب قبل الممات عسى الله أن يعفو عنا ، إنه هو العفو الغفور .

ومن أول المعاني التي نذكرك بها عن التوبة أنها باب من أبواب الحب لله عز وجل ، وقرأ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ (البقرة : ٢٢٢)

ولما كانت التوبة وسيلة من وسائل التطهر وباباً من أبواب القرب لله تعالى جاءت التوبة سابقة على التطهر ، أو نقول : إن التوبة طهارة القلوب والتطهر بالماء طهارة الأبدان فقدم طهارة القلوب لأنها المعتبرة ، فمن كان كثير الرجوع إلى الله سبحانه وتعالى فهو من التوابين ، ولهذا أوجب الله تعالى على نفسه أن يتوب على من يعمل السوء بجهالة ثم يطرق باب التوبة من قريب ^(٢) .

ولما كان أمر التوبة بهذه الخطورة ، وجَّه القرآن أنظار المسلمين لذلك ، فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا آتِنَا لَنَا نُورَنَا وَاجْعَلْ لَنَا عَلَيْ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (التحریم : ٨)

(١) انظر باب الشفاعة في كتب الأحاديث مثل : « الشايع الجامع للأصول » ، « الترغيب والترهيب » وغيرها . وكذا أبواب التوبة والاستغفار في كتب الحديث وخصوصاً في « الترغيب والترهيب » للمنذرى ، وراجع كتاب « مدارج السالكين » لابن القيم ، ج ١ ص ١٧٦ وما بعدها ، فستجد بحثاً شيقاً عن التوبة وأسرارها .

(٢) راجع آيات سورة النساء ١٧ ، وقد سبق إيراد هذه الآيات .

وأدعوك أن تتأمل في هذه الآية الكريمة أكثر من مرة لتدرك عظمة الآثار المترتبة على التوبة النصوح ، أى التوبة الصادقة الخالصة من شوائب الإصرار على الذنب أو التعلق القلبى به ، وذلك لا يكون إلا بالانصراف التام إلى الله عز وجل .

فإذا ما انتقلنا بك إلى بعض الآيات التى تناولت جوانب الاستغفار وجدنا الأمر فى غاية الأهمية ، كما سيظهر لك بعد ، والله الموفق .

الاستغفار شريعة السابقين

ليست دعوة القرآن إلى الاستغفار بدءاً فى الرسالات ، بل هى استمرار لدعوات الرسل السابقين الذين كان الاستغفار ركناً أساسياً فى دعوتهم وحياتهم ، ولعلك تذكر ما جرى ليوسف عليه السلام مما ورد فى السورة المسماة باسمه ، وحينما ظهرت الحقيقة لإخوة يوسف وعلموا أنهم أخطأوا فى حقه لم يوجه لهم لوماً بل قال : ﴿ لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ بِغَفْرِ اللَّهِ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (يوسف : ٩٢) ، ثم لما ظهر الأمر ليعقوب عليه السلام وعاد إليه بصره وطلب أبناؤه منه أن يستغفروا لهم كان موقفه كما حكاه القرآن الكريم : ﴿ قَالَ سَوْفَ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (يوسف : ٩٨)

ولما اختصم قوم صالح « ثمود » فى رسالته واحتلفوا بادرهم بالإنكار عليهم فذكر ما حكاه القرآن الكريم : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (النمل : ٤٦)

فالخلاف باب النعمة ، والاستغفار باب الرحمة . والاستغفار فى شرع صالح عليه السلام - فوق ما سبق - من باب شكر النعمة والاعتراف بالفضل ، وأول الأفضال فى مفهوم الإنسان الإنعام بالإيجاد من التراب ثم التمكين للإنسان فى الأرض ولهذا قال لهم عليه السلام : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾ (هود : ٦١)

وفى شريعة النبى ﷺ نجد الاستغفار دافعاً للعذاب ، قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (الأنفال : ٣٣)

والاستغفار كذلك باب من أبواب الدخول إلى رحاب الله عز وجل ، ذلك لأن الذنب والسوء من أسباب الإبعاد عن رحمة الله تعالى ، فلما جنى الإنسان على نفسه بالذنب

وأبعدها عن خالقها وصارت مراحاً للشياطين امتن الله تعالى على عبده فيسّر له طريق الرجوع إلى الرحمة والرضوان ، وأقرأ قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (النساء : ١١٠)

وأنا أدعوك - أخى القارئ - لأن تتوقف طويلاً أمام هذا التعبير الرائع « يجد الله » وكأني بالضال قد ضاعت منه الحقيقة وانغمس في ظلم نفسه وبأني الاستغفار طوقاً للنجاة يعود به إلى الله تعالى . كما أدعوك إلى أن تتوقف أمام خاتمة الآية إذ كان مقتضى الكلام البشرى لو قلنا ذلك لكان النظام « ثم يستغفر يجد الله غفوراً » فلاستغفار يقتضى الإجابة بالمغفرة ولكن رحمة الله تتسع للمستغفر فيكون أهلاً للرحمة ، فقال تعالى : ﴿ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ .

وإذا كان المؤمن يطمع في عفو ربه فليظهر من نفسه درجة الاستحقاق لهذه المكرمة أو قل لهذه المنزلة عند الله ، وذلك بأن يغفر للآخرين مأخذهم ومعائبهم ، قال تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعَفَوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (التغابن : ١٤)

وإذا كان المؤمن يدفع البغى عن نفسه وأهله كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴾ (الشورى : ٣٩)

والبغى محرم ولذا وجب دفعه والانتصار ممن بغى ليرتدع ، ومع ذلك فالؤمن يأخذ بالعزيمة فقال تعالى : ﴿ وَلِمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (الشورى : ٤٣)

بل إن المؤمن مطالب بأن يتجاوز عن الضلالات فلا يتوقف أمامها إلا للتنبيه والنصيحة قياماً بحق المؤمن في أن ينصحه أخوه المؤمن وكذلك حق الكافر أن يسمع كلام الله ، قال تعالى : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ ... ﴾ (الجنابة : ١٤)

والاستغفار فى النهاية إنما هو اعتراف بذلّ الذنب وضعف النفس ، فهو دخول إلى الله تعالى من باب الضعف ، وهذا أوسع الأبواب للوصول إلى رحمة الله تعالى .

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

الدعوة النبوية إلى التوبة والإنابة^(١)

إذا تأملت الأحاديث النبوية الصحيحة رأيت أبواب الأمل فساحاً لا تجعل اليأس يتسرب إلى نفس الإنسان مهما كانت خطاياهم ، لأن رحمة الله واسعة تتقاصر عنها الذنوب ، ولهذا لا ينبغي أن يستعظم إنسان ذنبه فيظن أن رحمة الله ومغفرته عاجزة عن مغفرة هذا الذنب ، لأن هذا اليأس يفضي إلى الكفر فليتنبه كل منا إلى ذلك .

وقد روى مسلم عن أبي موسى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله عز وجل ييسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، وييسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » .

ويسط اليد كناية عن الأمل في التوبة وقبولها مع سعة وتفضل ، وذكر الليل والنهار لبيان أنه لا وقت للتوبة ، فمن أخطأ بالليل ثم تاب يجد باب التوبة مفتوحاً فإذا أخطأ في النهار قبلت منه ، وإن أخرها إلى أى وقت بشرط أن يكون قبل وقت الإلجاء وهو ساعة الغرغرة إذا بلغت الروح الحلقوم ورأى أو عاين الملائكة حينئذ لا تقبل التوبة .

قال تعالى : « يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا » (الأنعام : ١٥٨)

في هذا الوقت لا تقبل توبة التائب .

وإذا تأملت حديثاً آخر لرسول الله ﷺ لوجدت أوسع الأبواب للأمل في رحمة الله تعالى قال ﷺ : « إن من قبل المغرب لباباً مسيرة عرضه أربعون عاماً أو سبعون سنة ، فتحه الله عز وجل للتوبة يوم خلق السموات والأرض فلا يغلقه حتى تطلع الشمس منه » رواه الترمذى في حديث ، والبيهقى واللفظ له ، وقال الترمذى : حديث حسن صحيح .

وقد روى ابن ماجه - بإسناد جيد - عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لو أخطأتم حتى تبلغ السماء ثم تبتم لتاب الله عليكم » .

وروى عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا تاب العبد من ذنوبه

(١) أحاديث الباب من كتاب « الترغيب والترهيب » للحافظ المنذرى ، وكتاب « التوبة والزهد » .

أنسى الله - عز وجل - حفظته ذنوبه وأنسى ذلك جوارحه ومعامله من الأرض حتى يلقي الله يوم القيامة وليس عليه شاهد من الله بذنوبه .

وهذا من لوازم التوبة - والله أعلم - فإذا تاب العبد محا الله تعالى الذنب الذي اقترفه ؛ ثم تزول الشهود أو قل تمحى الشهادات والمستندات الدالة على ارتكاب الذنب والتي تدن العبد ، وهذا إطماع فى الفضل حتى إن العبد الثائب إذا قرأ كتابه يوم القيامة لا يجد الشهود والمستندات فيزداد فرحاً ، أما لو وجد هذه الأمور فقد يسبق إلى وهمه أن توبته غير مقبولة ؟

أخى القارئ .. لو أردنا أن نسترسل بك فى هذا الأمر لظال بنا الحديث ، ولعل فيما أوردناه من الإشارة كفاية ، والحمد لله رب العالمين .

خاتمة

لعلنا قد وضحت فى أذهاننا الآن صورة مجملة عن الخطيئة والخلاص منها فى مفهوم الديانات الثلاث - اليهودية والمسيحية والإسلام - ولعلنا قد رأينا اتساق الفكرة الإسلامية مع العقل ، ومقتضى القدرة الإلهية التى لا تتناقض مع العقل .

كما أنها ارتفعت عن العنصرية والعصبيات ، ولم تدخل فى تهاويم الواهمين ، وإنما قررت حقائق كبرى ، وفتحت الباب واسعاً بلا واسطة إلى رحمة الله ، وارتفعت على شعور النقص فى الإنسان فتسامت به ، وعدلت من جوانبه ، ليكون عاملاً إيجابياً فى الفوز فى الدنيا والآخرة ، وأخيراً نذكر بقوله تعالى :

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعْتِ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

(يوسف : ١٠٨)



الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	* مقدمة
٧	* الفصل الأول : الخطيئة فى مفهوم التوراة :
٧	١ - محور الحياة فى نظر اليهود
٨	٢ - الخطيئة عند اليهود
٩	٣ - الإله وبنو إسرائيل
١٠	٤ - اليهود والاعتصاف
١٢	٥ - خطايا الأنبياء
١٣	- الخطايا المسموح بها
١٤	- اليهود والذبايح البشرية
١٦	- الخطأ بين صفوف اليهود
١٨	- مراسيم تكفير الخطايا
١٩	- خطوات التكفير -
٢٢	- يوم التكفير والغفران
٢٣	- خاتمة ..
٢٣	* وقت الخلاص اليهودى
٢٨	* الفصل الثانى : الخطيئة واخلاص فى عرف المسيحية :
٢٨	- تمهيد
٣٠	* الإيمان والعقل
٣٠	- أبو الأنبياء والعقل
٣١	- مجال العقل والتفكير

الصفحة

الموضوع

- ٣٢ العقل وعالم الغيب -
- ٣٣ من حقائق عالم الغيب -
- ٣٥ * المسيحية بين العقل والأوهام -
- ٣٦ مجال العقل -
- ٣٧ الوحي الإلهي -
- ٤٠ الإله وخضوعه لقانون المادة -
- ٤١ صلب المسيح فداء عن الخطيئة -
- ٤٤ الكنيسة وغفران الذنوب -
- ٤٥ الاعتراف للكاهن -
- ٤٦ تعليق عام -
- ٤٧ هل يجوز أن يكفر الخطيئة جسد إنسان ؟ -
- ٤٨ التكفير خاص بطائفة أم هام للبشر -
- ٤٩ الخطيئة ونسبة العجز إلى الله تعالى -
- ٥٠ * مفهوم الخطيئة بين الأناجيل والرسائل -
- ٥٠ أولاً : الخطيئة كما تصورها الأناجيل -
- ٥٣ ثانياً : الخطيئة في تصور الرسائل المعتمدة لدى المسيحيين -
- ٥٦ - ملاحظات -
- ٥٨ ثالثاً : الخطيئة في تصور إنجيل برنابا -
- ٦٠ * نظرات حول الخطيئة في المسيحية -
- ٦٥ * مفهوم الخلاص الحقيقي في المسيحية -
- ٦٩ * أين الحقيقة -
- ٧٠ • تلخيص تعاليم بولس -
- ٧٢ * خلاص الرسل منظومة إلهية لا تختلف -
- ٧٣ * الخلاصة -
- ٧٧ * الفصل الثالث : الخطيئة وإخلاص في الإسلام - التوبة -
- ٧٧ - تمهيد -

الصفحة	الموضوع
٧٧	- خطيئة آدم وموقف الإسلام منها
٧٨	- الخطيئة وفطرة الإنسان
٨٠	- الله يفرح بتوبة عبده المؤمن
٨٢	- حساسية المؤمن للذنوب
٨٣	- المستحقون للتوبة والمحرومون منها
٨٦	- من فضل الله تعالى على المؤمنين
٨٨	* فضل التوبة والاستغفار
٨٩	- الاستغفار شريعة السابقين
٩١	* الدعوة النبوية إلى التوبة والإنابة
٩٢	- خاتمة



رقم الإيداع : ٩٨ / ١٤٩٨٦

الترقيم الدولي : 7 - 098 - 262 - 977

دار البشير - القاهرة

للطباعة والنشر والتوزيع

٥٢٤٣٦٨٧

١٤٥ طريق المعادي الزراعي من ب ١٦٩ المعادي ت : ٥٢٥٢٣٩٠

هذا الكتاب

- خلق الله الإنسان وفي نفسه نوازع الخير ونوازع الشر، وكتب عليه نصيبه وحظه من كليهما ، فعمد معصية آدم عليه السلام الأولى وأبناؤه يخطئون ، وهذا لا بد واقع سبق به علم الله .
- ولكن .. هل يستسلم الإنسان لهذا الخطأ أو لهذه المعصية وهذه الخطيئة ؟ وكيف يتخلص منها ؟
- في الحقيقة أن الأديان كلها عالجت هذه النقطة ، ويبحث كيفية تخليص الإنسان من الخطيئة ، ورفع هذه الأغلال عنه .
- وهذا الكتاب يستعرض مواقف الأديان (اليهودية - المسيحية - الإسلام) من ، خلاص الإنسان من الخطيئة ، .
- ونرجو أن لا يُصدم القارئ عندما يصل إلى نتيجة مؤداها أن من هذه الأديان أديانا عنصرية تحكمت فيها عنصريتها عند تقرير الخلاص ، وبعضها كان ظالما أشد الظلم .
- هذا ما ستعرفه أخی القارئ على صفحات هذا الكتاب .

دار البشير

دار البشير - القاهرة

للطباعة والنشر والتوزيع

٥٢٤٢٦٨٧

٥٢٥٢٣٩٠

١٤٥ طريق المعادي الزراعي ص. ب ١٦٩ المعادي ت : ٥٢٥٢٣٩٠